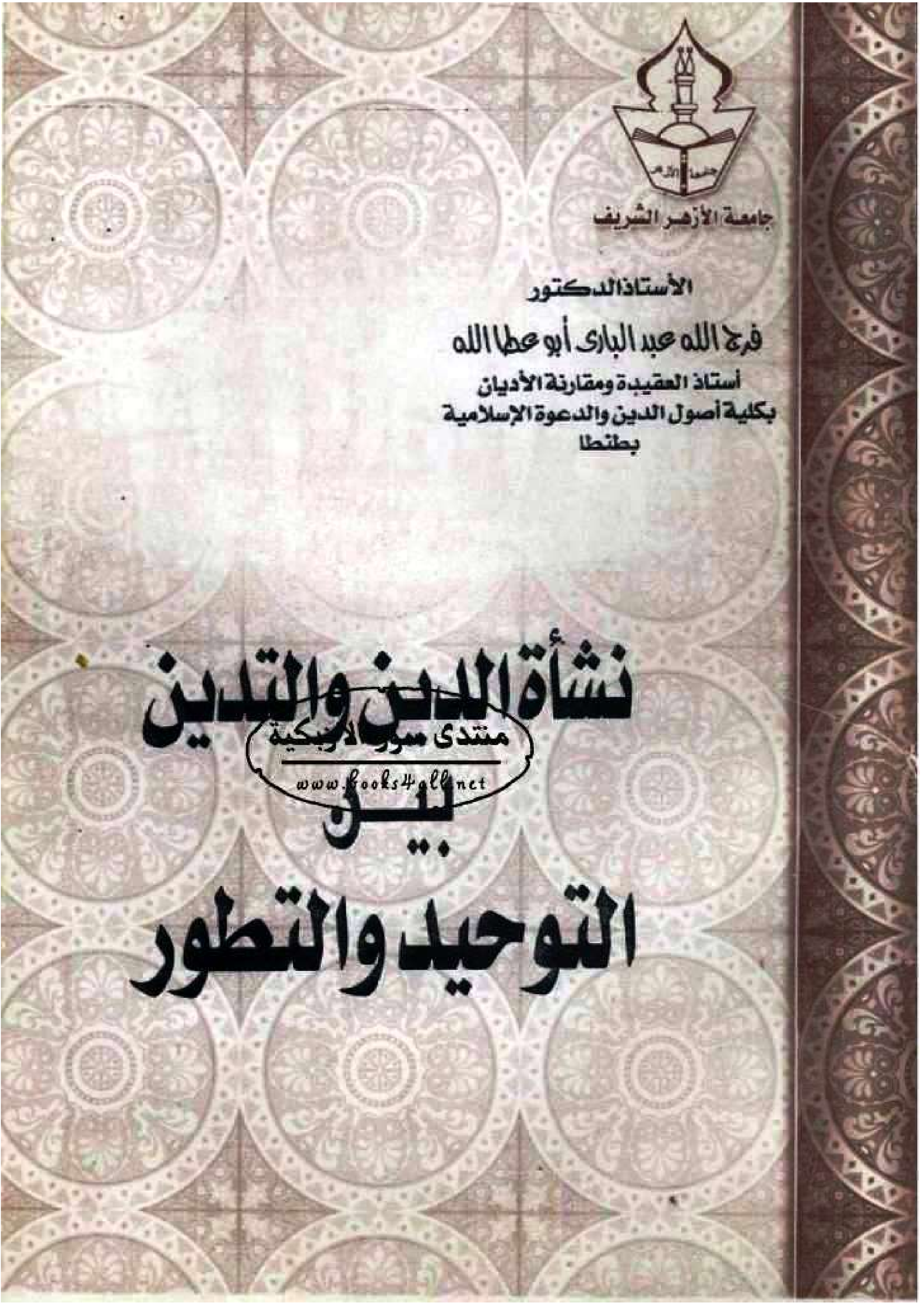

جامعة الأزهر الشريف
الأستاذ الدكتور
فرج الله عبد البارى أبو عطا الله
أستاذ العقيدة ومقارنة الأديان
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية
بطنطا
نشأة الدين والتدين
بين
التوحيد والتطور
منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

الأستاذ الدكتور
فرج الله عبد البارى أبو عطا الله
أستاذ العقيدة ومقارنة الأديان
بكلية أصول الدين والدعوة الإسلامية
بطنطا



نشأة الدين والتدين
بين
التوحيد والتطور

الطبعة الثانية

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٠/٨٨٦١
مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا
أمام فرع جامعة الأزهر
أول طريق سبرباى ـ كفر الشيخ

الإهداء

إلى والدتي ووالدي . عليهما رحمة الله

إلى رمز العفة والطهر صاحبة البذل الكبير والعطاء الوفير

زوجتي الكريمة

إلى أبنائي: حور ويحى وجنات ومحمد أهدي إليهم هذا العمل

سائلا الله أن يبارك فيهم جميعا

د/ فرج الله عبد الباري أبوعطا الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد.

فهذا بحث عن نشأة الدين والتدين. بين التوحيد والتطور. وكما يظهر من العنوان فإن الموضوع حيوي للإنسان بوجه عام، والمسلم المعاصر بوجه خاص. خاصة وأن هناك تيارات متعددة تتجاذب الموضوع إنْ بالحق أو بالباطل.

وواجب المشتغلين بالفكر الإسلامي من المتخصصين أن يُدلوا بدلوهم في الموضوعات التي يتناولها نفر من غير المتخصصين في العلم الديني خاصة الذين يتابعون الغربيين في وجهات نظرهم.

ومن ثَمَّ وجدت لزاماً عليَّ كأحد المنتمين إلى الإسلام، والمنتسبين إلى الجامع الأزهر العريق، والمعروف بدفاعه عن قضايا الدين بوسطيته المشهود لها. أن أتناول موضوع نشأة الدين وبواعث التدين. مبيناً الحق الذي أعتقده مدللاً عليه من خلال نصوص الكتاب والسنة مستأنساً بفهوم العلماء حولهما

ما معنى كلمة الدين في معاجم اللغة العربية؟ وما هى المعاني التي تدل عليها تلك الكلمة التي تمس شغاف القلوب حين تذكر. يموت بسببها من يموت ويحيا من أجلها من يحيا. إنْ بالحق أو بالباطل؟

هذا ما يجيب عليه هذا البحث. في المبحث الأول بمسائله الثلاث - التي تتناول معنى الدين في اللغة وماذا قال المستشرقون عن كلمة الدين. الواردة في اللغة العربية؟ وما هو الجواب عما أثاروه؟ هذا ما نتناوله المسألة الثانية من المبحث الأول. أما المسألة الثالثة. فكانت عن معنى الدين في إصطلاح الفكر الإسلامي.

أما المبحث الثاني: فكان عن الدين وإطلاقاته في القرآن والسنة واشتمل على عدة مسائل منها الدين في القرآن الكريم- بمعناه العام الذي يشمل الحق والباطل- فمن دلالته على الحق وروده بمعنى الإسلام أي استسلام المرء لله وتوحيده وهذا الإسلام هو ما وصف الله به الأنبياء في القرآن الكريم ومن دلالته على الباطل. قوله تعالى **﴿لكم دينكم ولي دين﴾** أما الدين بمعناه الخاص فيطلق على الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ والذي لا يقبل الله ديناً سواه.

أما المسألة الثالثة: فكانت عن الدين وإطلاقاته في السنة النبوية، وقد أوضحت أن لفظ الدين ورد بمعناه العام الذي يعني الدين الباطل كدين اليهود والنصارى وورد أيضاً بمعناه الخاص الذي يعني الدين الحق وهو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ ، وأوردت نماذج من المعنيين وإطلاقاتهما في أحاديث الرسول ﷺ .

أما المبحث الثالث: فكان عن إبطال زعم من ادعى نجاة غير المسلم بعد مبعث محمد ﷺ . وقد ناقشت فيه بعض الآراء التي زعم أصحابها أن المسلم من أخلص وجهه لله من أي ملة كان، وفي أي زمان وُجد بدون تقييد ذلك بمن كان قبل بعثة محمد ﷺ . أما بعد بعثته فلا يقبل من أحدٍ صرفاً ولا عداً إذا بلغته دعوة الإسلام. ولم يؤمن بالله ولم يصدق بمحمد ﷺ وحشدت الأدلة على ذلك.

أما المبحث الرابع: فعقدته للحديث عن الملة في اللغة والإصطلاح، وورودها في القرآن الكريم والسنة النبوية.

أما المبحث الخامس: فكان عن النحلة في اللغة، والاصطلاح، ودلالة هذه الكلمة وعلاقتها بمجال العقيدة والتدين.

أما المبحث السادس: فكان عن الدين في إصطلاح الغربيين. عرضت فيه جملة من تعريفاتهم للدين وبينت قصور التعريفات عن الوفاء بالمدلول الحقيقي لكلمة الدين ثم بينتُ العناصر الضرورية اللازمة للدين، والتي غابت عن تعريفات الغربيين ورجحتُ ما ذهب إليه العلامة الدكتور"دراز" وانتصرت للتعريف الذي أورده.. وأنهيت بذلك الفصل الأول من الدراسة.

أما الفصل الثاني: فجاء بعنوان مصدر الدين وبواعث التدين عند الغربيين وقد اشتمل على عدة مباحث:

المبحث الأول: دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين.

في هذا المبحث عرضت وجهة نظر بعض الغربيين الذين ذهبوا إلى أن الإنسانية قد عاشت قروناً طويلة في حياة مادية خالصة قبل أن تفكر في مسائل الدين، وبينت أن هذا الاتجاه سيطر على الفكر الأوربي فترة من الزمن، ولاتزال بقاياه موجودة في هذا العصر. وقد أوردت الأسباب التي جعلت البعض يذهب إلى هذا الرأي. وذكرت منها: القدوة غير الحسنة، والإنحلال الخلقي عند رجال الكنيسة. ومصادرة الفكر من قبل رجال الدين، وسيطرت الكنيسة واضطهادها للمفكرين. هذه الأمور وغيرها جَعَلَتْ الكثير ينفر من الدين ويهاجمه. وكان خطأ هؤلاء أنهم عمموا أحكامهم فلم يقصروها على الدين الذي عُذِبُوا باسمه. ولكن تعدوه إلى جميع الأديان وعلى رأسها الإسلام.

أما المبحث الثاني: فكان عن البواعث على التدين عند من يزعم بأن الإنسان مصدر الدين .

عرضتُ فيه أهم النظريات التي تفسر الباعث على التدين. فذكرت منها المذهب الطبيعي، والمذهب الحيوي، ومذهب الطوطم وأوردت بعض الاتجاهات الثانوية في الباعث على التدين والتي منها الشعور بالحب، والاتجاه النفسي كباعث على التدين.

ثم عقبتُ بتعقيب رصدت فيه انتشار هذه الأفكار الأمر الذي جعل بعض المفكرين في العالم الإسلامي يتابعون الغربيين في نظرتهم إلى مصدر الدين والبواعث عليه.

ذكرت من هؤلاء الأستاذ "سليمان مظهر" في كتابه "قصة الديانات" والأستاذ "عباس العقاد" في كتابه "الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية" ومما لفت نظري واسترعى انتباهي إقراره بما ذهب إليه الغربيون من أن الإنسان بدأ وثنياً معدداً وانتهى بتوحيد الآلهة في إله واحد. وإذا بالأستاذ "العقاد" بعد أن يعدد الأدوار التي مرت بها الأمم في العقيدة والتي تمثلت عنده في دور التعدد، ودور التميز والترجيح، ودور الوحدانية. إذا به يقول :"وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن **﴿فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربي﴾** سورة الأنعام الآيات ٧٦-٧٩

وبهذا التعقيب أنهيت المبحث الأول من الفصل الثاني.

أما المبحث الثاني : فقد خصصته لتقويم الاتجاهات الواردة في المبحث الأول. والتي يزعم أصحابها أن الإنسان هو مصدر الدين، وأن البواعث على التدين مظاهر أرضية أو سماوية بعيدة عن الوحي والغيب.

فنقضت ماذهب إليه أصحاب المذهب الطبيعي. وأيضاً ما ذهب إليه أنصار المذهب الحيوي. وتوقفت قليلاً عند أصحاب مذهب الطوطم خاصة زعيمهم "دوركايم" فيما ذهب إليه.

ثم تحدثت عن نقض القول بالتطور في خلق الإنسان والكائنات. والذي دفعني إلى إيراد هذا النقض ما ظهر لي أثناء عرض وجهة نظر الغربيين من سيطرة فكرة القول بالتطور بمعناه "البيولوجي" عليهم

جميعاً حتى بدا لي أن القول بـالتطور هـو القاسم المشـترك بينهـم علـى اختـلاف أزمنتهـم، وأمكنتهـم، ولغـاتهم. وقـد أوردت خلاصـة بحـوث العلماء التي انتهت إلى زيف القول بالتطور في خلق الكائنات والإنسـان من الناحيتين العلمية والدينية.

وبعد أن أنهيـت تفنيـد القـول بـالتطور "البيولوجـي" يممـتُ وجهـي شطر الذين يقولون بالتطور فـي العقيـدة. فبينـت الخطـأ المنهجـي الـذي وقعوا فيه، وأوضحت أن دراساتهم تقوم علـى الظـن والتخميـن. لاعلـى اليقين. وتساءلت ماهي الأدوات التي استخدمها هؤلاء لدراسـة معتقدات الإنسان منذ مليونين ونصف المليون عام..؟ هذا من ناحية. ثم من جهـة أخرى إن القول بقياس التطور في العقائد على التطـور فـي الصناعـات حجة على التطوريين لا لهم. ثم أوضحت أن القول بالتطور في العقيـدة بضاعـة أوربيـة استنفدت أغراضهـا وانتهـت صلاحيتها بعـد أن جـاء الإسـلام، وقـرر القـرآن أن النـاس منـذ خلقـوا كـانوا علـى التوحيـد وأن الرسل كانت توقظ فطر الخلق لترشدهم إلى توحيد الله وألوهيته..

أما مايتعلق بما ذهب إليه الأسـتاذ "العقـاد" (يغفـر اللـه لـه) فقد تناولتُ الآيات التي استدل بها على التطور، وأوردتُ ما ذكره ثلـةٌ، مـن المفسرين وعلماء العقيدة حولها وتـابعتهم فيمـا ذهبـوا إليـه مـن أن هـذه الآيات كانت على سبيل المجادلة والمحاجة لقومه بدليل قوله تعـالى فـي بداية الآيات **﴿وكذلك نري إبراهيـم ملكـوت السـموات والأرض وليكـون من الموقنين﴾** وكما يقول "الرازي" "ومن كان منصبـه فـي الدين كذلـك

وعلمه بالله كذلك فكيف يليق أن يعتقد بإلهية الكواكب" ومما يدل أيضاً على أنه في هذه الآيات كان مجادلاً قومه. قوله تعالى في نهاية الآيات﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم﴾ الأنعام الآية ٨٣

وقد ناقشت المفسرين الذين ذهبوا إلى خلاف ذلك- ثم بينتُ خطورة قول الأستاذ "العقاد" ومن قال بقوله - لأن القول بالتطور في الدين يؤدي منطقياً إلى أن الدين من صنع الإنسان وأن فكرة "الله" ليست سوى مثل أعلى متغير وضعه الناس لأنفسهم، وأيضاً فإن القول بالتطور في العقيدة فيه تكذيب للنصوص الدينية التي تقرر سمو التصور الديني عند سيدنا "آدم" عليه السلام.، وأنهيت بالرد على الأستاذ "العقاد" المبحث الثاني من الفصل الثاني

أما الفصل الثالث: فكان عن مصدر الدين، وبواعث التدين عند جمهور المسلمين. وقد اشتمل هذا الفصل على عدة مباحث:

المبحث الأول: عقدته للحديث عن القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين.. وقد أوردت في هذا المبحث ما ذكره الله عزوجل عن قصة "آدم" عليه السلام إنْ في السماء أو في الأرض والتي تدل على أن مصدر الدين هو الله، وأن الإنسان الأول نزل بالوحي، والهداية، والتوحيد، وأن الباعث على التدين الفطرة ودعوة الرسل إلى توحيد الله وعبادته وكذلك العقل السليم.

أما المبحث الثاني: فكان عن البواعث على التدين عند المسلمين - أوضحت في هذا المبحث أن الفطرة، والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم، وإرسال الرسل لتذكير الخلق ودعوتهم إلى توحيد الله. كل هذه الأسباب وغيرها كانت من البواعث على التدين، وأوضحت أن الأصل هو الوحدانية، وأن الشرك هو الطارئ على البشرية واستعرضت قوله تعالى(**كان الناس أمة واحدة**) البقرة الآية ٢١٣ وما دار حولها. من دلالتها على الاجتماع على التوحيد،وهو مذهب جمهور المسلمين في تفسير الآية. وما ذهب إليه البعض من أن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال. عرضت ما ذهب إليه كل فريق ورجحت ما ذهب إليه الجمهور من أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد وحشدت الأدلة على ذلك. وأنهيت بذلك الفصل الثالث. من الدراسة.

أما الفصل الرابع: فجاء تحت عنوان العلم التجريبي والدين

وقد اشتمل على مبحثين وعدة مسائل

في المبحث الأول: مهدت بتمهيد أوضحت فيه سيادة الاتجاه المادي المستند على الحس والتجربة ثم عرضت تعريف المذهب الوضعي، وقانون الحالات الثلاث الذي ذكر فيه "أوجست كونت" المراحل التي مرت بها البشرية ابتداءً بالمرحلة اللاهوتية، وتوسطاً بالمرحلة الميتافيزيقية، وانتهاءً بالمرحلة الوضعية التي يقرر فيها "كونت" ضرورة الاستغناء عن الدين والاكتفاء بالعلم التجريبي وأن جميع المشكلات لا تحل بالدين، ولكن بالعلم.

ثم أوردت الأسباب التي أدت إلى سيادة المذهب الوضعي وانتشاره في أوربا وكيف تسرب هذا المذهب إلى العالم الإسلامي وذكرت بعض المفكرين الذين تبنوه فترة ثم تراجعوا عنه أمثال "إسماعيل مظهر" والدكتور "زكي نجيب محمود" (يغفر الله لهما).

أما المبحث الثاني: فعقدته لتقويم المذهب الوضعي. ودار الحديث فيه عن عدم إتباع "كونت" للمنهج العلمي فيما ذهب إليه بالرغم من ادعائه تمثل العلم في جميع الأمور.

وبينت أن "كونت" نفسه قد هدم المذهب الوضعي الذي دعا إليه حين اخترع ديانة الإنسانية وكيف عبد "كونت" صنماً تمثل في إمرأة تدعى "كلوتيد دي فو"؟ وأوردت قوله تعالى ﴿**إنْ يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً**﴾ النساء الآية ١١٧

وأوضحت أن "كونت" الذي دعا إلى ترك العقيدة الدينية. صنع له ديناً جمع فيه خسة الفكر البشري في اتباع الهوى، والكفربالله العظيم.

ثم بينت في معرض الرد على "كونت" كيف أن العلم التجريبي الذي دعى إليه قائم على الغيبيات مستشهداً في هذا الصدد بأقوال أساطين العلم التجريبي الحديث، والمعاصر. وأن العلماء التجريبيين يصرحون بأنهم مضطرون لقبول أشياء كثيرة في المجال العلمي بلا مناقشة.

ثم تحدثت عن إخفاق العلم التجريبي في حل مشكلات الإنسان المعاصر. وأن العلم الذي دعا إليه "كونت" بعيداً عن الدين هو المسئول عن الإبادة الجماعية والفقر والجوع في العالم الآن.

ثم أوردت نماذج من انتشار السحر والتنجيم والشعوذة في العالم الغربي. الذي اتخذ العلم إلهاً عبده من دون الله. وأوضحت أن العلم عجز عن إشباع الجانب الروحي.الأمر الذي أدى إلى انتشار هذه الخرافات في أرقى المجتمعات الأوربية من الناحية المادية.

ثم كانت الخاتمة التي اشتملت على تعقيبين

التعقيب الأول: كان عن علاقة الإسلام بالعلم. أوضحت فيه شمولية الإسلام واهتمامه بكافة أمور الإنسان الدنيوية منها التي تحقق خلافته عن الله في الأرض واستكشاف سنن الله في كونه، والأخروية التي تحقق له الأمان في دار البقاء وبينت أن المسلمين الأوائل اكتشفوا سنن الله في أرضه وسمائه فانطلقوا يبحثون وينقبون ويشتغلون بالعلوم التجريبية من فلك وطب ورياضيات وكانوا يعتبرون أن ذلك انشغال بالعلم النافع الذي يحث عليه القرآن ويرغب فيه الرسول. وأوضحت أن المسلمين الآن لايمكن لهم أن يحققوا تعاليم الإسلام إلا بالعلم بكافة أنواعه وشتى ضروبه لأن إعداد القوة للأعداء لا تتأتى ولاتتحقق إلا بالعلم ولأن زراعة الأرض وعمارتها لن تتحقق إلا بالعلم. ولكن شتان بين مشتغل بعلم كلما اكتشف شيئاً أو حقق اختراعاً كلما إزداد قرباً من الله، وبين مشتغل آخر كلما اكتشف مخترعاً جديداً كلما زاد طغياناً

وفساداً واستكباراً في الأرض كما هو شأن الكثيرين الآن في الحضارة الغربية.

أما التعقيب الثاني: فكان عن الدين الحق الذي ينقذ البشرية وقصدت به الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ لما امتاز به من خصائص وبينت أن البشرية في أمس الحاجة إليه الآن. واقتصرت على جوانب ثلاثة من الإسلام يحل بها الإسلام مشاكل البشرية باعتباره رسالة عامة للعالمين واعتبار رسوله خاتماً للأنبياء والمرسلين. تمثلت هذه الجوانب في:-

أولاً: عقيدة التوحيد

وقد أوضحت أن التخبط الذي يصيب المجتمعات البشرية الآن يكمن في غياب التصور الصحيح عن الألوهية. والذي لانجده في الديانات الكتابية مثل اليهودية، والنصرانية ولا في الديانات الوضعية مثل الهندوسية والبوذية، ولا في المذاهب الوضعية مثل الرأسمالية وغيرها . وإنما نجد هذا التصور في الإسلام الحنيف.

ثانياً: الجانب الأخلاقي. وقد بينت أن المستنقع الآسن الذي وصلت إليه البشرية الآن من الناحية الأخلاقية لن يأخذ بيدها وينجيها من الغرق فيه سوى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ .

ثالثاً: جانب المعاملات بين الأفراد والدول وأن الإسلام بتعاليمه المبثوثة في القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية. هو الأمل المنشود

للبشرية كلها تحقيقاً لوعد الله . وإنما اقتصرت على هذه الأمور الثلاثة لأنها من وجهة نظري المتواضعة هى الأهم. وإلا فإن تعاليم الإسلام كلها في غاية الأهمية. والأمر الثاني الذي دعاني للاقتصار على هذه الجوانب الثلاثة. أن الدراسة ليست مخصصة لشرح تعاليم الإسلام.

أسأل الله أن يعز دينه وأن يمكن لأتباعه ليعيدوا أمجاد السلف الصالح. إنه سميع مجيب. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د/ فرج الله عبد الباري أبو عطا الله

الأستاذ بقسم العقيدة والفلسفة

جامعة الأزهر

الفصل الأول

مصطلحات تتعلق بالاعتقاد

المبحث الأول : الدين في اللغة والاصطلاح

ويشتمل على المسائل التالية :

المسألة الأولى : الدين في معاجم اللغة العربية

المسألة الثانية : المستشرقون وموقفهم تجاه كلمة الدين في اللغة العربية

المسألة الثالثة : الدين في الإصطلاح

المبحث الثاني : الدين وإطلاقاته في القرآن والسنة

ويشتمل على المسائل التالية :

المسألة الأولى : الدين في القرآن الكريم (المعنى العام)

المسألة الثانية : الدين في القرآن الكريم (المعنى الخاص)

المسألة الثالثة : الدين وإطلاقاته في السنة النبوية

المبحث الثالث : دحض دعوى نجاة غير المسلم بعد مبعث محمد ﷺ

المبحث الرابع : الملة في اللغة والاصطلاح

المبحث الخامس : النحلة في اللغة والاصطلاح

المبحث السادس : الدين في اصطلاح الغربيين

المبحث الأول

الدين في اللغة والاصطلاح

ويشتمل على المسائل التالية:

المسألة الأولى : الدين ودلالاته في اللغة العربية.

سوف نحاول تتبع معاني كلمة الدين في المعاجم اللغوية حتى نقف على استعمالها اللغوي. آملين أن نصل إلى ضوابط تجمع المعاني المختلفة للكلمة.

يقول ابن فارس "الدال، والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها وهو جنس من الانقياد والذل"(١)

وبالنظر في المعاجم اللغوية وكتب التفسير وشروح السنة وجدنا أن الدين من الناحية اللغوية يطلق على عدة معان. منها :-

١ - الطاعة

يقال دَأنَ له يَدِيْنُ دِيْنَاً إذا أصحَبَ وانقاد وطاع، وقوم دينُ أي مطيعون منقادون، وقد دنته أطعته. ومنه قول عمرو بن كلثوم

وأياماً لنا غراً كراماً   عصينا الملك فيها أن ندينا(٢)

وأصل الدين هو الطاعة والجزاء ثم استعير للشريعة، والدين كالملة لكنه يقال باعتبار الطاعة والانقياد للشريعة (٣)

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ج٢ ص ٣١٩ تحقيق عبد السلام هارون.

(٢) لسان العرب ج٢٠ ص ١٤٦٧- ١٤٧٠

(٣) معجم القرآن ص ٢٢٣ - ٢٢٤

٢ - الحكمْ القَاضِيْ

ومنــه الديَّــان وكــان علــى ديَّــان هــذه الأمــة أي قاضيهــا وحاكمها[١] ومنه قوله ﴿**ماكان ليأخذ أخاه في دين الملك**﴾[٢] أي في حكمه وقضائه

٣ - السياسة والقهر

تستعمل كلمة الدين بمعنــى السياسـة ومنـه قـول ذي الإصبـع

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب فينا ولا أنت ديَّاني فتخزوني

أي لست بقاهر فتسوس أمري[٣]

٤ - الجزاء والحساب والحُكم

ومنه يوم الدين أي الجزاء والحساب. سواء أكان يوم الحكم أو الجزاء والحساب فأي ذلك كائن فهو أمر يُنقاد له. وقال أبو زيد: دينَ الرجل يُدان إذا حُمـل علـى مـايكره[٤] وفـي المثـل "**كمـا تديـن تدان**" أي كما تُجازِي تُجازَى بفعلـك وحسـب مـاعملت ومنـه قولـه تعالى﴿**أئنا لمدينون**﴾[٥] أي مجزيون محاسبون

---

(١) لسان العرب والقاموس المحيط ج ٤ ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(٢) سورة يوسف الآية ٧٦

(٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ج ١ ص ١١٥ - ١١٦

(٤) معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠

(٥) سورة الصافات الآية ٥٣

٥ - العادة والشأن

يُقال مازال ذلك ديني وديدني أي عادتي وشأني يقول ابن فارس "أما قولهم إن العادة يقال لها دين فإن كان صحيحاً فلأن النفس إذا اعتادت شيئاً مرَّت معه وانقادت له، وينشدون في هذا.

كدِينك من أم الحويرث قَبلَها　　　وجارتها أمَّ الرَّباب بمأسَلِ [١]

ومنه قوله **يادين قلبك من سلمىَ وقد دِيّنَا** [٢] أي ياعادة قلبك، وقد دِيْنَاْ أي حُمل على مايكره.

٦ - الذل

يطلق الدين على الذل، والمَدِين العبد، والمدينة الأمة كأنها أذلهاالعمل، والمدينة الحاضرة كأنها مفعلة سميت بذلك لأنها تقام فيها طاعة ذوي الأمر [٣]

٧ - الحال

من الإطلاقات التي تستعمل بمعنى الدين في لغة العرب الحال قال النضر بن شميل : سألت أعرابيا عن شئ فقال لي لو لقيتني على دين غير هذا لأخبرتك أي على حال [٤]

ولعلنا نلاحظ المعاني المتعددة التي تتحملها إطلاقات كلمة

---

(١) معجم مقاييس اللغة ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢٠

(٢) المحرر الوجيز ج١ ص ١١٦

(٣) انظر معجم مقاييس اللغة ج١ ص ٣١٩ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج١ ص ١١٦

(٤) المحرر الوجيز ج١ ص ١١٦ انظر في المعاني المتعددة لاستخدام كلمة دين - القاموس المحيط ج١ ص٢٢٦-٢٢٧ ومختار الصحاح ص ٢٠٤، والمعجم الوسيط ج١ ص ٣٠٤

الدين غير أن هذا التنوع في استخدام الكلمة في المعاجم اللغوية جعلها - أي المعاجم - لا تحدد بالضبط المعنى الدقيق لكلمة (الدين)، ولعل من أبلغ من عبر عن هذا التنوع في تلك المعاجم، وتلمس العذر لواضعيها الدكتور "دراز" حيث يذكر عن هذه المعاجم أنها إنما وُضعت "لضبط اللسان لا لتثقيف الجنان" [1]

المحاور التي تدور حولها كلمة دين

بعد هذا الاستعراض يمكن أن نخلص إلى أن كلمة دين - تعود إلى ثلاثة معان تكاد تكون متلازمة - [2]

أولا : فهي تؤخذ من فعل متعد بنفسه "دانه يدينه" أو دانه ديناً ونعني بذلك أنه حكمه وملكه وساسه ودبره وقهره، وحاسبه وقضى في شأنه فالدين بهذا الاستعمال يدرو حول معنى المُلك والقهر **والمحاسبة والمجازاة** [3] **ولأن الحساب والجزاء معنى أصيل في استخدام العرب لكلمة دين.**

ثانياً : تأتي كلمة الدين من فعل متعد باللام "دان له" ومعناه أطاعه وخضع له فالدين هنا بمعنى الخضوع والطاعة والعبادة.

ثالثاً : تأتي كلمة الدين من فعل متعد بالباء " دان به" كقولنا دان الشئ معناه اتخذه ديناً واعتقده واعتاده، وتداين القوم استدان بعضهم

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ٢٩

(٢) نفسه ص٢٥

(٣) الدين للدكتور دراز ص ٢٦

بعضاً وتعاملوا بالدَيْن وهذا الاستعمال تابع للاستعماالين من قبله لأن العادة أو العقيدة التي يُدان بها لها من السلطان على صاحبها مايجعله ينقاد لها ويلزم اتباعها.

وينتهي الدكتور "دراز" إلى أن مادة دين تدور حول معنى لزوم الانقياد كما في الاستعمال الأول الذي هو إلزام الانقياد، وفي الاستعمال الثاني هو التزام الانقياد. وهناك فرق بين الإلزام والالتزام، وفي الاستعمال الثالث هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له"(١)

وإن كان للبعض رأيٌ آخر في أصل كلمة دين - فيرى الإمام الأكبر الشيخ "مصطفى عبد الرازق" - أن أكثر المعاجم اللغوية تجمع لفظ دَيْنْ ولفظ دِيْنْ في مقام واحد باعتبار أنهما من مادة واحدة ويتساءل "أفليس من المعقول أن تكون كلمة دين بمعنى ملة مأخوذة من كلمة دين بمعنى الشئ غير الحاضر فإن أساس الأديان كلها الإيمان بأمر وراء هذا الموجود المحسوس الحاضر"(٢)

غير أننا نرى أن هذا تضييق لاستعمال كلمة "**دين**" بعد أن رأينا استخداماتها - المتنوعة - وحصرها في معنى واحد بلامرجح والأولى بالقبول هو ما عبر عنه الدكتور دراز لجمعه المعاني المتعددة لكلمة "**دين**" في رباط جامع يتمثل في تعدي الكلمة بنفسها

---

(١) نفسه ص ٢٦ - ٢٧ وانظر مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص٦ للدكتور عوض الله حجازي وانظر في الدين المقارن ص ١٩ للدكتور محمد كمال جعفر دار الكتب الجامعية ١٩٧٠

(٢) الدين والوحي والإسلام ص ٣٥

وهذا التعدي يجمع عدة إطلاقات و كذلك تعديها باللام، وتعديها بالباء، وفي كل معانيها. فإنها تعني الإلزام والانقياد مع مايتطلبه الإلزام من صاحب طاعة، ومطيع، وشئ يُنَفَذْ أو يُفعَلْ من جانب المطيع إرضاءً لصاحب الطاعة والانقياد.

المسألة الثانية :-

وقفة مع بعض المستشرقين حول كلمة دين وأصالتها في اللغة العربية .

بعد هذه الجولة الواسعة بين المعاجم والقواميس اللغوية القديمة منها والمعاصرة في كلمة "دين" والمعاني المختلفة التي تتحملها في لغة العرب وأشعارهم بعد هذا كله يطالعنا أحد كُتاب دائرة المعارف الإسلامية من المستشرقين برأي يقول فيه "ذكر فقهاء اللغة من العرب في مادة دين معاني مضطربة أساسها كلمات ثلاث قائمة برأسها

١ - كلمة آرمية عبرية معناها الحساب

٢ - كلمة عربية خالصة، ومعناها عادة أو استعمال تمُتُ هى والكلمة الأولى إلى أصل واحد مثلها في ذلك مثل الكلمة العبرية "تشبات" بالنسبة إلى الكلمة "شافاط"

٣ - كلمة فارسية مستقلة تمام الاستقلال معناها ديانة، ويستشهد هذا المستشرق بكلام مستشرق آخر فيقول "وقد عارض "فولرز" الرأي القائل بوجود كلمة عربية خالصة هى دين، وبيَّن أن الكلمة الفارسية "دين" بمعنى ديانة كانت مستمدة بالفعل من اللغة العربية أيام الجاهلية وذهب إلى أن المعنى عادة أو استعمال قد اشتق من هذه

الكلمة. " ZEITSCHR-FASSYR "[1] وهو بهذا الطرح ينفي وجود كلمة عربية خالصة بمعنى الدين، وإذا عورض باستعمالها عند العرب في الجاهلية رد ذلك إلى أن أصلها فارسي ٠

ويواصل افتراءاته فيقول "وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الاضطراب إلى وقوع مفسري القرآن في مصاعب لاتنتهي، وشاهد ذلك أنهم حين تعرضوا لتفسير آية ﴿مالك يوم الدين﴾ انظر تفسير البيضاوي، والرازي، والطبري حاروا حيرة شديدة في التماس مايؤدي بهم إلى هذا المعني.. على أننا يمكن أن نرد آيات القرآن جميعاً إلى معنى أو آخر من معاني هذه الكلمة الثلاث التي ذكرناها آنفاً " [2]

كانت هذه هى الشبهة التي أثارها بعض كُتاب دائرة المعارف الإسلامية من المستشرقين٠

ويمكن الرد عليهم في النقاط التالية :-

أولاً : إن كلامهم لا يقوم على أي معيار علمي وأن الأمر لا يعدو أن يكون نزعة شعوبية تريد تجريد العرب من كل فضيلة حتى فضيلة البيان التي هى من أعز مفاخرهم [3]

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة دين ج٩ ص ٣٦٨

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية ج٩ ص ٣٦٨

(٣) الدين للدكتور دراز ص٢٧ - ٢٨

ثانياً : بالرجوع إلى المفسرين الذين وصفهم كاتب مادة **"دين"** بأنهم حاروا حيرة شديدة في التماس مايؤدي بهم إلى أن معنى الدين في قوله (**مالك يوم الدين**) المقصود به الحساب والجزاء، وجدنا أنهم عبروا عن تفسير الدين بالحساب والجزاء في منتهى الوضوح، والبيان واستدلوا على ما ذهبوا إليه بلغة العرب وشواهد من أقوال الصحابة والتابعين وهذا يوضح مدى الافتراء الذي يمارسه بعض المستشرقين على اللغة والدين من ناحية وعلى العلماء والحقيقة من جهة أخرى. وسوف نعرض رأي المفسرين الذين ذكرهم كاتب دائرة المعارف. ليرى القارئ مدى صدق كلام المستشرقين من عدمه.

يقول إمام المفسرين "الطبري" في تفسير قوله تعالى **(مالك يوم الدين)** والدين في هذا الموضع بتأويل الحساب والمجازاة بالأعمال كما قال كعب بن جُعَيْل:

إذا ما رمونا رميناهم ودناهم مثل ما يقرضونا

ومن ذلك قوله(**تكذبون بالدين**) يعني الجزاء وقوله (**فلولا إن كنتم غير مدينيين**) يعني مجزيين بأعمالكم ولا محاسبين يقول "وللدين معان في كلام العرب غير معنى الحساب والجزاء ثم يستدل على تفسير الدين بالحساب والجزاء بالآثار الواردة عن الصحابة فينقل عن ابن عباس وابن مسعود أن يوم الدين يوم

الحساب"[1] ونحن نسأل هذا المستشرق أي اضطراب إذن حصل في كلام الطبري وقد رأيناه يستدل وبتمكن على ماذهب إليه بكلام العرب وبالمأثور عن الصحابة رضوان الله عليهم

أما "الفخر الرازي" الذي اتُهم بالاضطراب في تفسير الآية فنصه كالآتي "قوله ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ أي مالك يوم البعث والجزاء، وتقريره أنه لابد من الفرق بين المحسن والمسيء والمطيع والعاصي، والموافق والمخالف وذلك لايظهر إلا يوم الجزاء "[2]

وأيضاً "البيضاوي" يفسر يوم الدين بيوم الجزاء والحساب ويستدل بلغة العرب على ذلك يقول "ومنه كما تَدِينُ تُدَانُ"[3] وكما هو واضح من النصوص التي نقلناها عن المفسرين الذين اتهموا من قِبَلِ بعض المستشرقين بالاضطراب لاحظنا الدقة فيما ذكره المفسرون حول ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ ولم يُحاروا في تفسيرها كما زعم كاتب دائرة المعارف وهذا ماحدا بالشيخ مصطفى عبدالرازق إلى إستبعاد أن يكون لفظ **"دين"** بمعنى الملة لفظاً غير عربي خصوصاً مع الاعتراف بوجود اللفظ نفسه عربياً. بمعنى آخر في رأي **"ماكدونالد" كاتب دائرة المعارف الإسلامية**[4]

---

(١) تفسير الطبري ج ١ ص ١٥٦ تحقيق أحمد و محمود شاكر دار المعارف

(٢) التفسير الكبير ج ١ ص ٢٣٦

(٣) تفسير البيضاوي ص ٤

(٤) انظر الدين والوحي والإسلام ص ٣٤

ثالثاً : والذي بدا لي أن كُتاب دائرة المعارف لاحظوا اختلاف المفسرين حول قراءة "مَالِكِ، ومَلِكِ" فتوهموا أن المفسرين اضطربوا واحتاروا في تفسير يوم الدين بالحساب والجزاء، وهذا مالم يحدث كما أوضحت عند عرض رأي المفسرين في تفسير الآية على أن شطط المفسرين فيما ذهبوا إليه مرده إلى جهلهم باللغة العربية ومعانيها وهم من هذه الناحية آخر من يصلحون علمياً للبحث في لغة القرآن وبلاغته كما يقول الأستاذ أحمد شاكر عليه رحمة الله[1]

---

(١) هامش دائرة المعارف ج١٢ ص ٤١٧



المسألة الثالثة :-

الدين اصطلاحاً

يُعرف الدين* في الاصطلاح بأنه "وضع إلهي سائق لذوي العقول السليمة باختيارهم المحمود إلى ماهو خير لهم بالذات"(١)

وبالتأمل في التعريف نلاحظ الآتي :-

أولاً : أن الوضع المشار إليه في التعريف لايتعلق بالأحكام الشرعية فقط وإنما يدخل فيه كل ما يوحي به الله إلى رسله عليهم السلام من أمور الدنيا والآخرة، وهذا يشمل العقائد والأعمال(٢)

ثانياً : أن التقييد هنا بكلمة إلهي يُخرج مايضعه الساسة والحكماء من التشريعات التي يسوسون بها الرعية ويديرون شئونهم لأن هذه القوانين موضوعة ولكنها ليست من عند الله وإنما هى من صنع البشر.

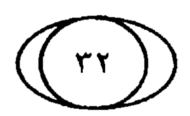
ثالثاً : كلمة "**سائق**" في التعريف تفيد معنى الحمل والبعث للنفس على فعل أمور الدين. لأن المكلف إذا سمع مايترتب على فعل الواجب من الثواب ومايترتب على الفعل الحرام من العقاب انساق إلى الأول، وترك الثاني.

---

(١) البيجوري على الجوهرة ص ١٤

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ج٢ ص ٥٠٣

* الدين هنا باعتباره "لايكون إلا وحياً من الله إلى أنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله" انظر الدين والوحي والإسلام ص ٤١



ويجب أن تخصص كلمة "سائق" بالمكلفين إذا أن هناك أموراً تسوقهم وتسوق غيرهم بحكم الضرورة والجبلة مثل الأوضاع الطبيعية التي تسوق الحيوانات لمنافعها.

رابعاً : الاختيار المحمود يخرج الأمور التي تسوق الإنسان إلى أمور لازمة لاتكون باختياره كالآلام السائقة إلى الأنين وكالجوع الذي يسوق إلى الطعام، والعطش الذي يسوق إلى الشراب.

أما المحمود فإنه يخرج الاختيار المذموم كالكفر وكمنع الزكاة المترتب على حب الدنيا والتعلق بها.

خامساً : الذات الواردة في التعريف. تتعلق بالخير الذاتي الذي هو عبارة عن السعادة الأبدية، وخرج بالخير الذاتي كافة التعاليم والصناعات السائقة إلى الخير فإنها وإن ساقت إلى الخير والمنفعة **إلا أنه خير جزئي أما الخير الكلي فهو الذي يدل عليه الدين ويأتي به** (١)

---

(١) انظر البيجوري على الجوهرة ص ١٥ بتصرف



المبحث الثاني

الدين وإطلاقاته في القرآن والسنة

المسألة الأولى

الدين في القرآن الكريم (المعنى العام)

تطلق كلمة الدين في القرآن الكريم على عدة معان منها :-

١ - الحساب والجزاء

كما في قوله تعالى ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾[١] ومنه قوله تعالى﴿**فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين**﴾[٢] ومنه قوله تعالى ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين** ﴾ [٣] **وقوله تعالى﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾** [٤] وكل كلمة دين إذا أضيفت إلى يوم فهى يوم القيامة [٥] وقد ذهب إلى أن معنى كلمة "دين" في هذه الآيات - جميعها معناها الجزاء والحساب جمهرة من المفسرين واستندوا على أقوال للصحابة والتابعين يفسرون فيها يوم الدين - بأن المقصود به الحساب والجزاء[٦]

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٤

(٢) سورة الواقعة الآية ٨٦ - ٨٧

(٣) سورة الانفطار الآية ١٧ - ١٨

(٤) سورة الماعون الآية ١

(٥) معجم القرآن ص ٢٢٣ - ٢٢٤ عبد الرءوف المصري مطبعة حجازي ١٩٤٨م

(٦) انظر تفسير ابن عطية ج ١ ص ١١٥، وتفسير الرازي ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ وأبو السعود ج ١ ص١٧

٢ - النظام والملك والحُكم

كما في قوله تعالى ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله ﴾[١] أي في نظام ومُلك مَلِك مصر أو في قضاء المَلِكْ ومنه قوله تعالى ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾[٢] أي في قضائه وحكمه وشريعته[٣]

٣ - الطاعة والإذعان

كما في قوله تعالى ﴿ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾[٤] أي ومن أحسن طاعة [٥]

ومنه قوله تعالى ﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾[٦] أي الطاعة والعبادة

وقوله تعالي ﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾[٧] أي طاعتي وعبادتي[٨]

---

(١) سورة يوسف الآية ٧٦

(٢) سورة النور الآية ٢

(٣) الكليات لأبي البقاء ج٢ ص٣٢٨ - ٣٢٩

(٤) سورة النساء الآية ١٢٥

(٥) المفردات للراغب ص ١٧٧ - ١٧٨

(٦) سورة الزمر الآية ١١

(٧) سورة الزمر الآية ١٤

(٨) القرطبي المجلد الثامن ص ٢٤٢ - ٢٤٣

٤ - الطريقة والعادة والعقيدة والمذهب

كما في قوله تعالى ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ [١] أي لكم طريقتكم التي تتبعونها في عبادتكم ومعاملاتكم، ولي ديني أي طريقتي التي علمني الله إياها وأرشدني إليها وأمرني بها [٢]

وقد استخدم "الرازي" رحمه الله معان متعددة لكلمة الدين في تفسيره لهذه الآية، وفسرَّ الآية بها.

فينقل عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ أي لكم كفركم، ولي التوحيد والإخلاص بالله.

ويقول: إذا قيس الدين بمعنى الحساب لكم حسابكم ولي حسابي ولايرجع إلى كل واحد منا من عمل صاحبه أثر ألبتة. أو الدين العقوبة أي فلكم العقوبة من ربي ولي العقوبة من أصنامكم لكن أصنامكم جمادات فأنا لا أخشى عقوبتها، وأما أنتم فيحق لكم عقلاً أن تخافوا عقوبة جبار السموات والأرض.

وإذا فُسر الدين بمعنى العادة فمعناه لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم ومن الشياطين ولي عادتي المأخوذة من الملائكة والوحي ثم يبقى كل منا على عادته وطريقته حتى تلقوا الشياطين والنار، وألقي الملائكة والجنة [٣]

---

(١) سورة الكافرون الآية ٦

(٢) انظر الدين ص٢٦ ومقارنة الأديان ص٦

(٣) انظر تفسير الرازي ج٣٢ ص١٤٧

بهذه الشمولية استخدم "الرازي" معظم المعاني المستخدمة في كلمة الدين في تفسير قوله تعالي ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾ .

٥ - الدين بمعنى الإسلام الذي عليه جميع الأنبياء

وردت كلمة الدين في القرآن الكريم بمعنى الإسلام بوجه عام والإسلام في هذه الإطلاقات اسم للدين المشترك الذي هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء [١] وعنوانه قول **(لا إله إلا الله)** وهو الدين الذي يعني عبادة الله وحده لاشريك له الذي بُعث به جميع الأنبياء كما دل على اتحاد دينهم نصوص الكتاب[٢] والدين الذي جاء به الأنبياء قبل محمد ﷺ هو الإسلام بمعنى إخلاص الدين والعبادة لله [٣]

وعلى هذا الإطلاق للدين بمعنى الإسلام بمعناه العام ورد ما يعرف بوحدة الدين عند جميع الأنبياء والمرسلين وأتباعهم من المؤمنين. يقول تعالي ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا** ﴾ [٤]

ويجب أن نقرر هنا أن الدين الموحي به من الله للأنبياء

---

(١) الدين ص١٧٥

(٢) الإيمان لابن تيمية ج٧ ص٦٣٥ - ٦٣٦

(٣) تفسير الرازي ج٧ - ٨ ص ٢٠٨

(٤) سورة النساء الآية ١٦٣

هو الإسلام بمعناه العام، وقد وُصِفَ معظم الأنبياء بأنهم مسلمون، وبأن دينهم هو الإسلام.

١- **سيدنا نوح** عليه السلام يذكر أن دينه الإسلام يقول تعالى **﴿فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾**(١)

٢ - **سيدنا إبراهيم** عليه السلام يقول تعالى عنه **﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾** (٢)

٣ - **سيدنا يعقوب** عليه السلام يحكى القرآن وصيته لأبنائه عند احتضاره يقول تعالى **﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾** (٣)

٤ - **سيدنا يوسف** عليه السلام يقول **﴿ رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾**(٤)

٥ - **سيدنا موسى** عليه السلام يدعو قومه إلى الإسلام يقول تعالى **﴿ وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾** (٥)

---

(١) سورة يونس الآية ٧٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٣١

(٣) سورة البقرة الآية١٣٦

(٤) سورة يوسف الآية ١٠١

٦ - **وسيدنا سليمان** حكى القرآن عنه أنه دعا ملكة سبأ إلى الإسلام يقول تعالى ﴿**إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلو عليّ وأتوني مسلمين**﴾ [١] ويتحدث عن دينه ﴿**وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين**﴾ [٢] وملكة سبأ حين أذعنت لسليمان أعلنت أنها قد دخلت في دين الإسلام يقول تعالى ﴿ **قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين**﴾[٣] **وسيدنا عيسى** عليه السلام كانت دعوته ودينه الإسلام يقول تعالى ﴿ **فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾[٤]

فكلمة الإسلام في هذه الآيات تعني الخضوع لله وطاعته وعلى هذا فإن أتباع الأنبياء مسلمون ومن ثمَّ فجميع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال، وبه كان الأنبياء يوصفون فالمسلم الحقيقي من كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله[٥]. على أن الإسلام هنا يراد به الاستسلام طوعاً

---

(١) سورة يونس الآية ٨٤

(٢) سورة النمل الآية ٣٠ - ٣١

(٣) سورة النمل الآية ٤٢

(٤) سورة النمل الآية ٤٤

(٥) سورة آل عمران الآية ٥٢

(٦) انظر فجر الإسلام لأحمد أمين ص ٧٠ وتفسير المراغي ج٣ ص ١١٩

فكأن المسلم هو الذي رضى بإطاعة الله فاجتمعت له الطاعة والإرادة، وإنما قلنا طوعاً حتى نميز بين نوع آخر من الإسلام بمعنى الانقياد والطاعة ولكن بالقهر والكُره وعليه قوله تعالى ﴿ **ولـه أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون** ﴾ [1] وهنا أسلم المؤمن طواعية والكافر اضطراراً من حيث أنه وغيره من الكائنات خاضعون لله ومنقادون له بحكم خِلْقَتِهِمْ رضوا أم كرهوا [2]

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٣

(٢) فجر الإسلام ص٧٠ لأحمد أمين مكتبة النهضة الطبعة الحادية عشرة

المسألة الثانية

الدين في القرآن الكريم (المعنى الخاص) للإسلام

والإسلام على هذا الوجه هو "ما اختص به محمد ﷺ من الدين والشريعة والمنهاج، وهو الشريعة والحقيقة" [١] وقد اعتبر الله أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو الدين الحق الواجب اتباعه من المشركين أو اليهود أو النصارى وبالجملة من جميع الناس.

يقول تعالى ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ [٢] أي لا دين مرضي عند الله سوى الإسلام وهو التوحيد الذي جاء به محمد ﷺ والتدرع بشرعه[٣]

يقول ابن كثير في تفسير هذه الآية "إخبار منه تعالي بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتموا بمحمدٍ ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لَقِيَ الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين

---

(١) مجموع الفتاوى ج٧ ص ٦٣٥ - ٦٣٦

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩

(٣) تفسير البضاوي ص ٦٩

على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾** (١)

ويقول سبحانه **﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾** (٢) يذكر إمام المفسرين الطبري في تفسيره لهذه الآية "أي ومن يطلب غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل الله منه وهو في الآخرة من الخاسرين الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله عز وجل وذكر سبحانه أن أهل كل ملة ادعو أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين لأن من فرائض الإسلام الحج فامتنعوا.فأدحض الله حجتهم" (٣)، ويذكر "القرطبي" أن هذه الآية نزلت في "الحارث بن سويد أخو الجلاس بن سويد" وكان من الأنصار ارتد عن الإسلام هو واثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفاراً فنزلت هذه الآية ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة، وروى ذلك ابن عباس وغيره قال ابن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات (٤) وينقل الطبري عن عكرمة في سبب نزول الآية **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً ﴾** قالت اليهود فنحن المسلمون قال الله عز وجل لنبيه ﷺ قل لهم لله على الناس حج

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٩ وانظر تفسير ابن كثير ج١ ص ٣٥٤

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٣) تفسير الطبري المجلد الثالث ص ٢٤١

(٤) تفسير القرطبي ج٣/٤ ص١٢٨

البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر من أهل الملل فإن الله غني عن العالمين" (1)

والخلاصة أن الإسلام في هذه الآية مقصود به المعنى الخاص أي الدين الذي جاء به محمد ﷺ (2)

ومن إطلاقات الدين على الإسلام بالمعنى الخاص قوله تعالى ﴿**إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً**﴾ (3)

فدين الله في هذه الآية المراد به الإسلام يقول الله تعالى ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ (4) وقوله ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾ (5)

وللدين أسماء أخرى بمعنى الإسلام منها صراط الله في قوله تعالى ﴿ **صراط الله الذي له مافي السموات وما في الأرض**﴾(6)

ومنها كلمة الله في قوله تعالى ﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا**﴾ (7)

---

(1) انظر الطبري المجلد الثالث ص ٢١٤

(2) انظر تفسير الرازي ج٧/٨ ص ١٢٥ - ١٢٦

(3) سورة النصر الآية ١-٢

(4) سورة آل عمران الآية ١٩

(5) سورة آل عمران الآية ٨٥

(6) سورة الشورى الآية ٥٣

ومنها الحبل في قوله تعالى ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا**﴾[1]

وبعد أن يعدد "الرازي" إطلاقات كلمة الدين بمعنى الإسلام يقول "وإنما قال في دين الله ولم يقل في دين الرب ولا سائر الأسماء لوجهين :

الأول : أن هذا الاسم أعظم لدلالته على الذات والصفات فكأنه يقول: هذا الدين إن لم يكن له خصلة سوى أنه دين الله فإنه يكون واجب القبول.

الثاني : لو قال دين الرب لكان يشعر ذلك بأن هذا الدين إنما يجب عليه قبوله لأنه رَبَّاكَ وأَحْسَنَ إليك، وحينئذ تكون طاعتك له معللة بطلب النفع فلايكون الإخلاص حاصلاً"[2]

ومن إطلاقات الدين على الإسلام بالمعنى الخاص قوله تعالى ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ [3] وقوله تعالى ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله**

---

(٧) سورة التوبة الآية ٤٠

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣

(٢) تفسير الرازي ج٣٢ ص١٥٧

(٣) سورة التوبة الآية ٣٣

ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون» [1]

فالمراد بالدين في جميع هذه الآيات هو نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها المختلفة من ناحية الاعتقاد والتشريع والسلوك[2] لأن الدين عند المسلمين معنى جامع لكل تصرف يتصرفه المرء المسلم في حياته منذ أن يستيقظ من نومه إلى أن يؤوب إلى فراشه، وفي كل عمل يعمله مهما اختلفت هذه الأعمال من أحقرها إلى أدناها إلى أشرفها وأعلاها كل ذلك دين هو مسئول عنه يوم القيامة وعلى هذا المعنى يحمل قول الله تعالى على لسان رسول الله ﷺ **« قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»** [3]

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٩

(٢) انظر المصطلحات الأربعة ص ٨٥ -٨٦ -٨٧

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٣ وانظر في مفهوم الدين كتاب أباطيل وأسمار ص ٢٢٣ - ٢٢٤ للأستاذ محمود شاكر - طبعة المدني الطبعة الثانية

المسألة الثالثة

كلمة الدين واطلاقاتها في السنة النبوية

وردت كلمة الدين في السنة النبوية الشريفة بمعان عدة [1] لا تخرج عما ورد في القرآن من إطلاقات بالمعنى العام والخاص.

١ - وردت كلمة الدين بمعنى التوحيد

روى البخاري بسنده عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه. فلقى عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إني لعلى أدين دينكم فأخبرني فقال : لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله. قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وإني أستطيعه ؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً. قال زيد: وما الحنيف؟ قال دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله "[2] وهذا النص جزء من حديث طويل. والشاهد في هذا الحديث قوله "يسأل عن الدين" أي عن التوحيد [3]. وفيه أيضاً إطلاق لفظ الدين على ماعليه اليهود من اعتقاد وعبادة باطلة -كما أخبر اليهودي"زيد"- أما ما ورد في الحديث من قوله "وما الحنيف؟

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ج٢ ص ١٦٣

(٢) البخاري كتاب مناقب الأنصار باب حديث زيد بن عمر بن نفيل ج٢ ص ١٤٢

(٣) فتح الباري ج٧ ص ١٤٤

قال: دين إبراهيم. فيُقصد به الدين الحق بدليل قوله "ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله" ولذلك ورد أن زيد بن عمرو كان يفتخر على أهل مكة قائلاً: مابقى أحدٌ منكم على دين إبراهيم إلا أنا" (١).

٢ - بمعنى الحساب والجزاء

من إطلاقات الدين في السنة إطلاق اللفظ على الجزاء -سواء في الخير أو في الشر، وكذلك إطلاق اللفظ على الحساب- وهي معاني لا تخرج عما ورد في القرآن الكريم كما أسلفنا ولا عما ورد في لسان العرب. وقد ذكر "البخاري" رحمه الله تحت باب ما جاء في فاتحة الكتاب ما نصه " الدين الجزاء في الخير والشر كما تَدِين تُدَانْ، وقال مجاهد : بالدين بالحساب" (٢)

وقد أورد "ابن حجر" في شرحه لقول "البخاري" ما يفيد أن ما ذكره "البخاري" من معنى للدين هو "كلام أبي عبيدة أيضاً قال الدين الحساب والجزاء يقال في المثل كما تُدين تُدان" (٣) ثم تتبع ابن حجر ما أورده البخاري في قوله كما تُدين تُدان" بأن ذلك ورد في حديث مرفوع أخرجه عبد الرزاق عن معمرعن أيوب عن أبي قلابة عن النبي، وهو بهذا مرسل رجاله ثقات، وما رواه عبد

---

(١) نفسه ص ١٤٥

(٢) البخاري بهامش فتح الباري ج٨ ص ١٥٦ كتاب التفسير باب ماجاء في فاتحة الكتاب

(٣) فتح الباري ج٨ ص ١٥٦ كتاب التفسير باب ما جاء في فاتحة الكتاب

الرازق بهذا الإسناد أيضاً عن أبي قلابة عن أبي الدرداء مرفوعاً وأبو قلابة لم يدرك أبا الدرداء، وله شاهد موصول من حديث ابن عمر أخرجه ابن عدي وضعفه" [1] وبعد أن يؤصل ابن الحجر الحديث ويورد طرقه- يقول "وللدين معان أخرى: منها العادة، والعمل، والحكم، والحال، والخُلق، والطاعة والقهر والملة، والشريعة، والورع والسياسة وشواهد أخرى" [2]

٣ - بمعنى الدين الباطل الذي عليه أهل الشرك

روى البخاري في صحيحه وأبو داود في سننه عن عائشة رضى الله عنها قالت "كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمون بالحُمْسْ وكان سائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها يفيض منها فذلك قوله ﴿ **ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس** ﴾ [3] من دان دينها أي تبعهم واتخذ دينهم ديناً [4] والمقصود به دين أهل الشرك من مكة وفي رواية أخرى للبخاري عن عروة "والحُمسُ قريش وما ولدت"[5] والأحمس الشديد على دينه، وكانت قريش تُسمى

---

(١) نفسه

(٢) نفسه

(٣) صحيح البخاري بهامش فتح الباري ج٨ ص ١٨٦ - ١٨٧

(٤) انظر أبو داود باب الوقوف بعرفة ج٥ ص ٣٨٩ شرح الحافظ ابن قيم الجوزية الناشر المكتبة السلفية -ضبط وتحقيق عبدالرحمن محمد عثمان.

(٥) البخاري بهامش فتح الباري ج٣ ص٦٠٢

الحُمْسُ، وكان الشيطان قد استهواهم فقال لهم إن عظمتم غير حرمكم استخف الناس بحرمكم فكانوا لا يخرجون من الحرم"[1]

أما قوله"والحُمس قريش وما ولدت" عن أبي عبيدة معمر بن المثني قال : كانت قريش إذا خطب إليهم الغريب اشترطوا عليه أن ولدها على دينهم فدخل في الحُمْس من غير قريش ثقيف، وليث وخزاعة، وبنو عامر بن صعصعة يعني وغيرهم، وعرف بهذا أن المراد بهذه القبائل من كانت له من أمهاته قريشية لا جميع القبائل المذكورة[2] ... المقصود هنا أن من دان بدين أهل مكة وهو الشرك والكفر بالله كان يفعل فعلهم. فجاء رسول الله ﷺ فخالفهم، وأمر المسلمين أن يفيضوا من حيث أفاض الناس. والمقصود به إبراهيم عليه السلام. فقد روى ابن أبي حاتم وغيره عن الضحاك أن المراد بالناس هنا إبراهيم عليه السلام وعنه المراد به الإمام وعن غيره آدم عليه السلام وحجة من ذهب إلى أن المقصود بالناس إبراهيم عليه السلام على اعتبار أن الحج من ميراث إبراهيم. ومحمد مأمور أن يتبع ملة إبراهيم حنيفاً ولكن ابن حجر رجح أن المقصود بالناس هنا العموم وهذا ما تستريح إليه النفس [3]

---

(١) نفسه ج٣ ص٦٠٣

(٢) نفسه ج٣ ص ٦٠٤

(٣) نفسه

٤ – وتأتي كلمة الدين في السنة بمعنى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ

روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها زوج النبي قالت "لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ولم يمرعلينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية"(١) وهذا جزء من حديث طويل.

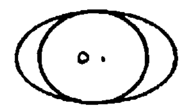
يذكر ابن حجر أن قول عائشة "لم أعقل أبوي" يعني أبا بكر وأم رومان. قوله "يدينان الدين" بالنصب على نزع الخافض أي يدينان بدين الإسلام(٢)

والشاهد هنا أن الدين في حديث عائشة استخدم بمعنى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ. وفيه أن أبا بكر وأم رومان من السابقين في الإسلام بدلالة هذا الحديث وأن عائشة منذ أن وعيت وأبواها على الإسلام، وقد وردت روايات متعددة تفيد أن أبا بكر أول من أسلم من الرجال.

---

(١) البخاري بهامش فتح الباري ج٧ ص ٢٣٠ كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة

(٢) نفسه ج٧ ص٢٣٢



المبحث الثالث :-

دحض دعوى نجاة غير المسلم بعد ظهور الإسلام وبلوغه دعوته.

دفع توهم نجاة أحد من أتباع الأديان بعد مجئ الرسول ﷺ بالإسلام.

نقف هنا وقفة مع بعض الذين يتوهمون أن النجاة من النار يمكن أن تتحقق لأحد من أتباع الأديان كاليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها بعد بعثة محمد ﷺ -وأكثر ما يكون الخلط عند استعمال بعض الآيات الواردة في القرآن على عمومها- مع أن المقصود منها التقييد بدين الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ .

يقول "المراغي" في تفسير قول الله تعالى﴿ **إن الدين عند الله الإسلام**﴾ أي أن جميع الملل والشرائع التي جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع وإن اختلفت في بعض التكاليف وصور الأعمال وبه كان الأنبياء يُوْصَفُوْنْ فالمسلم الحقيقي من كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان وفي أي زمان وُجد، وهذا هو المراد بقوله عز وجل ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه**﴾ [١]

ونرى أن هذا الإطلاق يجب أن يقيد لأن القول بأن المسلم من كان مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان وفي أي زمان وُجد" فيه نوع من الإيهام وكان يجب أن يقيد هذا بمن كان

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٠ وانظر تفسير المراغي ج٣ ص١١٩



شأنه قبل بعثة محمد ﷺ. أما بعد بعثة محمد ﷺ –فلا يقبل من أحد صرفاً ولا عدا إلا إذا آمن بمحمد ﷺ ، وتخلص من معتقداته السابقة – وبناءً على ذلك فلا إسلام بعد بعثة النبي إلا الإسلام بمعناه الخاص الذي ختم الله به الرسالات، ويتضح ذلك جلياً في دعوة النبي لليهود أن يسلموا – فقالوا أسلمنا قبلك– وهم يقصدون الإسلام العام – فدعاهم النبي ﷺ إلى أداء فريضة الحج أحد أركان الإسلام بمعناه الخاص. فأبوا فأنزل الله **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا.ومن كفر فإن الله غني عن العالمين﴾**[1]

ونفس الأمر حدث مع النصارى الذين حضروا من نجران ودار بينهم وبين النبي ﷺ حوارٌ ولما وجدهم النبي من عشاق الجدل وعُباد الحوار عرض عليهم الإسلام. أخرج ابن سعد في الطبقات عن الأزرق بن قيس قال: قدم على النبي ﷺ أسقف نجران والعاقب فعرض عليهما الإسلام فقالا: إن كنا مسلمين قبلك قال كذبتما، وأنه منع منكما الإسلام ثلاث قولكما :اتخذ الله ولداً، وأكلكما لحم الخنزير، وسجودكما للصنم" [2]

ولذلك تكون عبارة الشيخ المراغي عن المسلم الحقيقي "من

---

(١) سورة آل عمران الآية ٩٧ وانظر تفسير الطبري المجلد الثالث ص ٢٤٢ ولباب المنقول في أسباب النزول للسيوطي ص ٨٣ بهامش المصحف

(٢) نفسه ص ٧٨ - ٧٩

كان خالصاً من شوائب الشرك مخلصاً في أعماله مع الإيمان من أي ملة كان، وفي أي زمان وُجد وهذا هو المراد بقوله **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾** [1]

عبارة مطلقة في موضع يجب فيه التقييد بمن كان قبل بعثة النبي ﷺ أما بعد بعثة محمد فإن المسلم الحقيقي هو من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأخلص وجهه لله وعمل بموجبها.

وقد التفت إلى هذا المعنى الدكتور "عبد الحليم محمود" في لفتة رائعة منه لتحديد من هو المسلم الحقيقي يقول "والإسلام هو الدين في إطلاقه المطلق وفي تحديده المحدد فمما لا شك فيه أنه لا دين خارج إسلام الوجه لله، وأن الدين في معناه الصحيح إنما هو إسلام الوجه لله، ومن هنا كان لفظ الإسلام أصدق تعبير عن الدين وكانت القضية **﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾**[2] قضية لا شك فيها وكانت القضية المترتبة على هذه **﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾** [3] قضية هي الأخرى لا شك فيها إن كل من يرفض إسلام الوجه لله إنما يرفض الدين، وبمقدار بُعد الإنسان أو قربه من إسلام الوجه لله يكون قربه أو

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٢) سورة آل عمران الآية ١٩

(٣) سورة آل عمران الآية ٨٥

بعده من المعنى الصادق للدين، وإسلام الوجه لله هو التوحيد وإذا كانت سِمَةُ النصرانية في وضعها الراهن هى التثليث فإن سمة الإسلام هى التوحيد. إنها توحيد الله بالربوبية. بالخلق والإيجاد وبالإعطاء والمنع"(١)

فلا يستقيم إسلام إنسان مع قوله عيسى ابن الله ولا قوله عزير ابن الله وهذه قيود توضع على كلمة الإسلام بالمعنى العام، وأيضاً بالمعنى الخاص فما جاء موسى ولا عيسى ولا محمد ﷺ بغير توحيد الله

إننا ننطلق من قوله تعالى ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾ (٢) في حكمنا على كل نصراني أو يهودي أو بوذي أو هندوسي سمع بالإسلام وبلغته دعوته ثم لم يؤمن ويصدق بمحمد ﷺ فهو كافر ومشرك وإن مات على ذلك فهو مخلد في النار أبد الآبدين.

يقول ﷺ **"والذي نفسي بيده ما من يهودي ولا نصراني يسمع بالذي جئت به ثم لا يؤمن إلا كان من أصحاب النار"**(٣)

ولابد من الإشارة إلى بعض الآيات القرآنية التي يحاول

---

(١) الإسلام والإيمان ص ٥٧-٥٨-٥٩ للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود الطبعة الثانية دار الكتب الحديثة

(٢) سورة آل عمران الآية ٨٥

(٣) انظر شرح الطحاوية ص ١٧٠ والحديث أخرجه مسلم تحت رقم ١٥٣ انظر هامش الطحاوية ص ١٧٠

البعض أن يفهم منها خطأ أن اليهود والنصارى، والصابئين إذا آمنوا بالله واليوم الآخر فهم ناجون في الآخرة ويستشهدون بقول الله تعالى **﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾** (١)

وأكثر ما نسمع الكلام حول هذه الآية حين يكون الحديث عن العلاقة بين المسلمين وغيرهم من أرباب الديانات الكتابية -فيحاول البعض أن يضيع الحدود الفاصلة بين الحق والباطل وبين الصحيح والفاسد من الأديان بعد تحريفها وتبديلها- (٢) فيؤولون هذه الآيات ويخرجون معانيها عما تعارف عليه جمهور العلماء من المفسرين وغيرهم من علماء الإسلام.

يذكر "الرازي" في تفسيره لهذه الآية أن المراد الذين آمنوا قبل مبعث محمد ﷺ بعيسى عليه السلام مع البراءة من أباطيل اليهود والنصارى مثل "قس بن ساعدة" و"بحيرى الراهب" و"زيد بن عمرو بن نفيل" و"ورقة بن نوفل" و"سلمان الفارسي"، ووفد النجاشي فكأنه قال: إن الذين آمنوا قبل مبعث محمد والذين كانوا على الدين

---

(١) سورة البقرة الآية ٦٢

(٢) يقول أحدهم "فلابد من ترشيد معنى الدعوة إلى الله ما دامت كل الأديان تمثل معابر للنجاة وحبال مدها الله إلى عباده في كل العصور" انظر جريدة الحياة العدد ١٣٠٦٩ بتاريخ ١٥/١٢/١٩٩٨م مقال بعنوان "مؤتمر الإسلام والغرب" - عبد الله الأشعل عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

الباطل الذي لليهود والذين كانوا على الدين الباطل الذي للنصارى كل من آمن منهم بعد مبعث محمد ﷺ بالله وباليوم الآخر وبمحمد فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون[1]

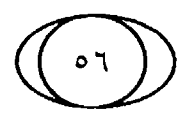
ونلاحظ أن الإمام "الرازي" فهم من الآية أن من آمن من هؤلاء بالله واليوم الآخر ثم آمن بمحمد ﷺ فله أجره عند ربه ولا خوف عليه ولا حزن.

وإذا كنا قد أخذنا نموذجاً لتفسير الآية من أحد القُدامى وهو الإمام "الرازيّ" فإننا سنعرض رأي أحد المُحدَثين في تفسيره للآية:

يقول الأستاذ سيد قطب " الذين آمنوا يعني بهم المسلمين والذين هادوا من اليهود، والنصارى هم أتباع عيسى عليه السلام، والصابئون الأرجح أنهم تلك الطائفة من مشركي العرب (قبل البعثة) الذين ساورهم الشك فيما كان عليه قومهم من عبادة الأصنام فبحثوا لأنفسهم عن عقيدة يرضونها فاهتدوا إلى التوحيد وقالوا إنهم يتعبدون على الحنيفية الأولى ملة إبراهيم واعتزلوا عبادة قومهم دون أن يكون لهم دعوة فيهم فقال عنهم المشركون إنهم صبأوا أي مالوا عن دين آبائهم كما كانوا يقولون عن المسلمين بعد ذلك. والآية تقرر أن من آمن بالله واليوم الآخر من هؤلاء جميعاً وعمل صالحاً فإن لهم أجرهم عند ربهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون

---

(١) انظر التفسير الكبير للرازي المجلد الثاني ج٣ ص ١١٢



فالعبرة بحقيقة العقيدة لا بعصبية جنس أو قوم وذلك طبعاً قبل البعثة المحمدية أما بعدها فالآية تحدد شكل الإيمان الأخير فلا نجاة لأحد إلا بدخوله في دين محمد ﷺ وهو الإسلام[1] والإسلام هنا بمعناه الخاص يقول تعالى ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما**﴾[2]

والذي دعانا أن نعرض الآية وتفسيرها عند أحد القدامى وأحد المُحْدَثِيْنَ لنبين أنه ما كان يخطر على بال أحد أن النجاة في الآخرة من الممكن أن تتم لأحد دون الإيمان بمحمد ﷺ، ولكن البعض من الكُتاب هداهم الله يحاول أن يضيع الحدود الفاصلة بين المسلمين من أتباع محمد، وبين غيرهم من أتباع الأديان الأخرى فيقول "إن المسلمين في لغة القرآن هم المؤمنون بالله الواحد، وليسوا أتباع دين خاص[3]

وآخر في حديث له في التلفاز بمناسبة الإسراء والمعراج يعتبر أن ما جاء في حديث الإسراء والمعراج من قوله ﷺ عن لقائه بالأنبياء وأخوته لكل منهم "أخي موسى أخي عيسى "يعتبر هذا إعلان بالأخوة بين الإسلام والمسيحية[4] وهذا نوع من الخلط

---

(١) ظلال القرآن ج١ ص٧٥

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٥

(٣) انظر جريدة الأهرام القاهرية ١٩٨٧/٣/١٧م

(٤) انظر مقدمة الدكتور يحي هاشم لكتاب اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام ص١١

والتمويه فمحمد ﷺ وعيسى دينهم واحد ولكن شتان بين أتباع عيسى بعد بعثة محمد ﷺ وأتباع محمد، ولا يمكن أن نقول إنه يجمعهم الإسلام على اعتبار أن المسلمين في لغة القرآن ليسوا أتباع دين خاص -كما يقول البعض- إنه وكما يقول البيروني "إن الشهادة بكلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) شعار المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات (أي اتخاذ يوم السبت يوماً مقدساً) علامة اليهود"[1] فأي إسلام إذن مع التثليث، وعند من نجد التوحيد بعد بعثة محمد ﷺ ؟ إن التوحيد بمعناه الصحيح ليس عند أحدٍ من الأمم إلا عند أتباع دين الإسلام بمعناه الخاص.

كما يحاول البعض أن يخلط -بين الإسلام بمعناه الخاص ومعناه العام- يقول أستاذنا الدكتور يحي هاشم "إن بعض الباحثين الذين نكن لهم الاحترام عندما يكتبون في مجالات غير تخصصهم تنزلق بهم الأقدام في هذا المقام. إذ يخلط بعضهم بين كلمة الدين عندما يراد بها المعنى اللغوي العام الذي يشمل الصحيح وغيره، وكلمة الدين عندما يراد بها المعنى الخاص الذي لا ينطبق على غير الصحيح فيكون عندئذ خاصاً بالإسلام يخلط بين الاستعمالين فيقتنص شواهد من المقام الأول يستعملها في خصائص من المقام الثاني وعندئذ يعلن تعددية الأديان في نظر الإسلام" "[2] ثم ينتهي

(١) تحقيق ماللهند من مقولة ص٣٩ لأبي الريحان البيروني - عالم الكتب ١٩٨٣م

(٢) مقدمة كتاب اليوم الآخر ص١٢

فضيلته إلى وضع بعض القواعد الهامة في تحديد الدين بمعنى الإسلام "لا إسلام ولا دين مقبولاً عند الله بعد بعثة محمد ﷺ إلا بالإيمان به وباتباع كل ما جاء به، والقرآن صريح وقاطع في وصف عقائد أهل الكتاب بأنها كفر وشرك وبأن مصير أصحابها إلى النار"[1] وإن رفضنا لما عليه أتباع أهل الأديان الأخرى بعد التحريف والتبديل لا يعني رفضنا للتوراة، والإنجيل الصحيحين إذ يعتقد المسلمون أن الله أنزل كتاباً على موسى اسمه التوراة وأنزل الإنجيل على عيسى ولكن أين هما ؟ إن القرآن يعلن ويتحدى اليهود وكذا النصارى **﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾**[2] ومن ثَم يجب أن توضع الأمور العقدية في وضعها الصحيح فلا نحرف ديننا ولا نأتي على عقيدتنا لحساب أي طرف وتحت أي ظرف لأن أتباع الأديان الأخرى يحافظون على عقيدتهم ويتمسكون بها، وإذا فعلنا فالخسارة ستلحق بنا دنيا وأخرى. وسنكون على خطر عظيم إذا نحن ساومنا الغير على الحق الذي شرفنا الله به – ولذلك حسم الله قضية الدين بمعنى الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ واعتبر أن أتباعه هم وحدهم أصحاب الحق والهدى، وأن غيرهم على ضلال وشقاق– يقول تعالى **﴿وقالوا كونوا هوداً أونصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ۰ قولو آمنا بالله وما**

---

(١) نفسه ص ١٣، ١٤

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٣

أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ۰ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[1]

يذكر "البغوي" أن الآية نزلت في رؤساء اليهود[2] وفي نصارى أهل نجران وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله وأن دينها أفضل، وكفروا بمحمد ﷺ والقرآن، وقال كل واحد من الفريقين للمؤمنين كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك فقال تعالى **(قل)** يا محمد **(بل ملة إبراهيم)** بل نتبع ملة إبراهيم حنيفا قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ثم علَّمَ المؤمنين طريق الإيمان فقال جل ذكره **﴿قولوا آمنا بالله﴾** الآية – ثم قال سبحانه **﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا﴾ أي أتو بإيمان كإيمانكم وتوحيدكم**[3] فقد اهتدوا يقول سيد قطب "رحمه الله" قوله **﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾** هذه الآية تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه، ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادي للهدى، وأما المؤمن فإن الله هو وليه وهو الذي يدافع عنه"[4] هذا هو المعنى

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٥-١٣٦-١٣٧

(٢) انظر لباب المنقول في أسباب النزول للسيوطي بهامش المصحف ص٣٠

(٣) انظر تفسير البغوي ج١ ص ٤٧

(٤) في ظلال القرآن ج١ ص ١١٢ بتصرف يسير

الصحيح الذي يجب أن يعتقد فيه المسلم ويعتنقه من ناحية المفاضلة بين للدين الحق المتمثل في الإسلام وبين غيره من الأديان.

وتبقى هنا وقفه هامة مفادها أن المفاصلة في أمور العقيدة بين المسلم وبين غيره شئ ومعاملة المسلم مع غيره من أتباع الأديان الأخرى في المجتمع شئ آخر.

وكما يقول أستاذنا الدكتور يحي هاشم " إن الاستقرار والتعايش وتجنب الفتنة لا يكون قط بمحاولات طمس الحدود ما بين العقيدتين فهذا لا يرضي أياً من الطائفتين لأنه يتعدى عليهما معاً. إن الطريق إلى تجنب الفتنة الطائفية كان دائماً وسيكون بضمان من شريعة الله التي تعطي أهل الكتاب حقوقهم الاجتماعية كاملة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"[(١)] أي أن المسلم يجب عليه أن يتبع هدي الله وهدي رسول الله ﷺ في معاملة أهل الكتاب مالم يبدأوا بعدوان أو يظاهروا على المسلمين. وهم إن لم يفعلوا فلهم عهد الله وعهد رسوله ﷺ [(٢)] وكفى بعهدهما أمناً وسلاماً واستقراراً. وهذه الأمور هى فحوى المعاهدات التي تمت بين المسلمين وبين أهل الكتاب من اليهود والنصارى[(٣)] الذين خُتم العهد بينهم وبين رسول الله ﷺ

---

(١) انظر مقدمة فضيلته لكتابنا اليوم الأخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام ص١٢

(٢) انظر النماذج الرائعة لمعاملة المسلمين لأهل الكتاب خاصة النصارى في كتاب الدعوة إلى الإسلام للسير توماس أرنولد ص ٩٤-١٢٢

(٣) انظر نص معاهدة النبي ﷺ ليهود المدينة في سيرة ابن هشام ج٢ ص٨٨، و٨٩، و٩٠، و٩١

بقوله " وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره
أنه لايحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم، وأنه من خرج أمن، ومن
عد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وإن الله جار لمن بر واتقى
محمد رسول الله ﷺ "[1]

وكذلك ختمت معاهدة نصارى نجران بقوله ﷺ "وعلى ما
في هذه الصحيفة بجوار الله وذمة محمد رسول الله حتى يأتي الله
بأمره مانصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مبتلين بظلم[2]

وعلى هذا الأساس سارت معاهدات الخلفاء الراشدين، ومن
جاءوا بعدهم من خلفاء الدولة الإسلامية :

وكانت مصر مثالاً يُحتذى به في الأمن والأمان لأهل
الكتاب الأمر الذي جعلهم يدخلون في الإسلام طواعية -بعد أن
قارنوا بين المسلمين- وبين غيرهم من الرومان على الرغم من
أنهم كانوا على دين واحد. يذكر "السير توماس أرنولد" أن الفتح
الإسلامي جلب إلى القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم
ينعموا بها قبل ذلك، وقد تركهم عمرو بن العاص أحراراً، وكفل
لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، وخلصهم بذلك من هذا
التدخل المستمر الذي أُنوا من عبنه الثقيل في ظل الحكم الروماني،
ولم يضع عمرو يده على شئ من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب

---

(١) نفسه ج٢ ص ٩١

(٢) مختصر سيرة الرسول ﷺ ص ٢٧٤

عملاً من أعمال السلب والنهب، وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعاً إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حُكامهم الجدد[1] ويبدو أن هذا التسامح لم يكن فترة محدودة وإنما كان على طول امتداد الحكم الإسلامي والمرجع في هذا فضلاً عن كتب التاريخ الإسلامي تاريخ الكنيسة يقول "توماس أرنولد " ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة، وذلك أدى إلى اندماج كثير من المسيحيين في جماعة المؤمنين"[2] وهذا الذي ينبغي أن يكون دوماً في علاقة المسلمين بأهل الكتاب لهم ذمة الله ورسوله. لأن الفتنة تأتي بخسارة لا يعلم مداها إلا الله. ولن يستفيد منها أحد إلا الذين يحرصون على بث الفُرقة بين أبناء الوطن الواحد. وقد تنبه عقلاء أهل الكتاب لهذا. فجاءت تصريحاتهم المعلنة لتصب في مصلحة الجماعة يقول الأنبا شنودة "إن الأقباط في ظل حكم الشريعة يكونون أسعد حالاً وأكثر أمناً، ولقد كانوا كذلك في الماضي حينما

---

(١) انظر الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٣ - ١٢٤

(٢) انظر الدعوة إلى الإسلام ص ١٢٨ وانظر مقدمة الدكتور يحى هاشم لكتاب اليوم الآخر ص ١٢- ١٣

كان حكم الشريعة هو السائد نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل "لهم ما لنا وعليهم ما علينا"(١)

والأنبا "يوحنا قتله" وهو كاثوليكي مصري يقول "أوافق على أن أكون مصرياً مسيحياً تحت حضارة إسلامية بل أنا مسلم ثقافة مائة في المائة. أنا عضو في الحضارة الإسلامية كما تعلمتها في الجامعة المصرية تلك الحضارة التي تُعلي من قيمة الإنسان كخليفة عن الله في الأرض، وإنه ليشرفني وأفتخر أنني مسيحي عربي أعيش في حضارة إسلامية، وفي بلد إسلامي، وأساهم وأبني مع جميع المواطنين هذه الحضارة الرائعة"(٢) وهذه النظرة التي لا تخلط بين الأمور هى التي نتمنى أن تسود، ونسأل الله لأمتنا وأوطاننا أن يجنبها شرور الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يهيء للمسلمين أمر رشد حتى يعزوا ما أعز الله، ويذلوا ما أذل الله ورسوله.

---

(١) الإسلام والسياسة د/محمد عمارة ص ٢٠٤ نقلاً عن صحيفة الأهرام ١٩٨٥/٣/٦م

(٢) نفسه ص ٢٠٥

المبحث الرابع :

الملة في اللغة والاصطلاح

من المصطلحات الشائعة في دراسة الأديان الملة -فلزم أن نحقق معناها اللغوي والشرعي- وإطلاقاتها في القرآن والسنة حتى يتبين لنا مدى توافقها مع معنى الدين من الناحيتين اللغوية والشرعية.

أولاً: -

الملة في اللغة

ورد في لسان العرب لابن منظور أن الملة تطلق على الشريعة والدين، وفي الحديث لا يتوارث أهل ملتين، وتطلق الملة على الدين حقاً كان أو باطلاً كملة الإسلام كدين حق، وملة النصرانية واليهودية كدينين باطلين[1] وتطلق الملة على الشرك أيضاً.

وتطلق الملة على الطريقة -ثم نقلت إلى الشرائع من حيث أن الأنبياء يعلمونها ويسلكونها[2] وتطلق الملة على الطريقة المسلوكة والسنة، ويرى بعضهم أن ذلك من إملال الكتاب لأن السنة تُملي ،وتُكْتَبُ ليُعْمَلَ بها ويرى آخرون أن ذلك من قولهم

---

(١) لسان العرب ج٦ ص ٤٢٧١ وانظر مختار الصحاح ص ٥٦٤

(٢) الكليات لأبي البقاء ج٢ ص ٣٢٨، و٣٢٩

طريق ممل ومليل مسلوك مُعَدَّة للسير، والملة تُوطأ للناس ليسيروا عليها[1]

ثانياً:-

الملة في الاصطلاح الشرعي

تطلق الملة في الشرع على ما شرعه الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليُتوصل بها إلى جوار الله[2] ومن ثمَّ فهي تطلق على الدين من هذا الوجه يقول تعالى ﴿ **قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾[3]

ثالثاً :-

إطلاقات الملة في القرآن والسنة

وردت كلمة الملة في القرآن الكريم بمعنى الدين حقاً كان أو باطلا. فمن ورودها بمعنى الدين الحق قوله تعالى ﴿**ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين**﴾[4]

---

(١) معجم ألفاظ القرآن الكريم المجلد الثاني من الشين إلى الياء - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠ م مجمع اللغة العربية.

(٢) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٤٩٢

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦١

(٤) سورة البقرة الآية ١٣٠

وفي قوله تعالى ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾ [١]

ويقول سبحانه وتعالى ﴿**قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ [٢] إن الملة أطلقها الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على الإسلام الخالص الصريح الذي لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه مستهتر بها إن اليهود والنصارى كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم -ولكن الله يدلهم على حقيقة دين إبراهيم وأنه الميل عن الشرك- ويؤكد هذه الحقيقة مرتين: مرة بأنه كان حنيفاً، ومرة بأنه ما كان من المشركين فما بالهم هم المشركون[٣]

ويقول عز وجل ﴿**وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل**﴾[٤]

والمعنى اتبعوا ملة إبراهيم لأنها داخلة في ملة محمد ﷺ فإن قيل فما وجه قوله ﴿**ملة أبيكم**﴾ وليس كل المسلمين يرجع نسبهم إلى إبراهيم؟ قيل خاطب به العرب وهم كانوا من نسل إبراهيم،

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٥

(٢) سورة آل عمران الآية ٩٥

(٣) انظر في ظلال القرآن ج١ ص ١٠٩ - ١١٠ وانظر ص ٤٢٨

(٤) سورة الحج الآية ٧٨

وقيل خاطب به جميع المسلمين وإبراهيم أب لهم على معنى وجوب احترامه وحفظ حقه كما يجب احترام الأب[1]

وهذه الإطلاقات جميعها تشعر بأنه ليس ثمة فرق بين الدين الصحيح وبين الملة في إطلاق الشرع يقول أستاذنا الدكتور عوض الله حجازي "لقد ظهر لي بعد البحث الدقيق واتضح لنا بعد المراجعة الواسعة أنه ليس هناك فرق واضح بين الدين والملة شرعاً لأن الله تعالى قد أطلق الملة على الدين الحق في كثير من آيات القرآن الكريم"[2] وقد استعرضنا آيات القرآن التي تبين أن الملة ترد بمعنى الدين الحق.

وإذا كان هناك من فرق بين الدين الحق والملة. فذلك الفرق لغوي لا شرعي.

يذكر أبو هلال العسكري في كتابه الفروق "الفرق بين الدين والملة أن الملة اسم لجملة الشريعة، والدين اسم لما عليه كل واحد من أهلها ألا ترى أنه يقال فلان حسن الدين، ولا يقال حسن الملة وإنما يقال هو من أهل الملة ويقول ديني دين الملائكة، ولا يقول ملتي ملة الملائكة لأن الملة اسم للشرائع مع الإقرار بالله، والدين ما يذهب إليه الإنسان ويعتقد أنه يقربه إلى الله وإن لم يكن فيه شرائع مثل دين أهل الشرك، فاليهودية ملة لأن فيها شرائع،

---

(١) مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ٦١٩

(٢) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص ٩، و١٠

وليس الشرك ملة، وقد يسمى كل واحد من الدين والملة باسم الآخر في بعض المواضع لتقارب معنيهما[1] وهذا التوضيح من أبي هلال يضبط مصطلح الملة وإطلاقاتها. حتى يكون المرء على بينة من كلامه خاصة فيما يتعلق بمصطلحات الأديان.

ويضيف الشهرستاني بُعداً آخر في التفريق بين الدين والملة إذ يقول: إن الإنسان لما كان محتاجاً إلى اجتماع مع الآخرين من بني جنسه في إقامة معاشه والاستعداد لميعاده، وذلك الاجتماع يجب أن يكون على شكل يحصل به التمانع والتعارف حتى يحفظ بالتمانع ما هو أهله، ويحصل بالتعاون ما ليس له فصورة الاجتماع على هذه الهيئة هي الملة" [2] فقد نظر الشهرستاني إلى الاجتماع على هيئة أو مبدأ وأطلق عليه اسم الملة ولكنه يبين أن الملة وضعها لا تتصور إلا بوضع شارع "أي نبي" يكون مخصوصاً من الله بآيات تدل على صدقه[3] أي أن الملة التي يُجتمع عليها لابد وأن تكون على الحق.

---

(١) الفروق في اللغة لأبي هلال العسكري ص ٢١٤

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ص ٣٨

(٣) نفسه ص ٣٨

إطلاق الملة في القرآن الكريم على الدين الباطل

يقول تعالى **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾** [١] أورد السيوطي في لباب المنقول عن الثعلبي عن ابن عباس قال: إن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلي النبي ﷺ إلى قبلتهم. فلما صرف الله القبلة إلى الكعبة شق ذلك عليهم وأبوا أن يوافقهم على دينهم فأنزل الله **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ﴾**، ونلاحظ هنا أن الملة الواردة في الآية يراد بها الدين الباطل بدليل قول الله عز وجل للنبي ﷺ في نفس الآية **﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾** [٢]

ومن ذلك أيضاً قول الله تعالى في سورة الأعراف **﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شئ علما على**

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٠ وانظر لباب المنقول في أسباب النزول للسيوطي بهامش المصحف ص٢٨

(٢) سورة البقرة الآية ١٢٠

الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾[1] فالملة هنا استعملت بمعنى الدين الباطل ومنه قوله تعالى **﴿ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾**[2] والملة هنا يُعني بها النصرانية كما ورد عن ابن عباس ومقاتل والكلبي أو المقصود بها ملة قريش ودينهم كما ورد عن مجاهد وقتادة[3]

---

(١) سورة الأعراف الآية ٨٨ - ٨٩

(٢) سورة ص الأية ٧ وانظر تفسير البغوي ج٢ ص ٧٩٧ والجلالين ص ١٣٧

(٣) رواه أحمد والأربعة إلا الترمذي وأورده صاحب سبل السلام ج٤ ص ١٥١

إطلاقات الملة في السنة

نأتي هنا ببعض استخدامات الملة في السنة حتى نتبين المقصود بإطلاقاتها، ودلالاتها

عن عبد الله بن عمرو رضىالله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ "لا يتوارث أهل ملتين"(١) فقد ذهب الجمهور إلى أن المراد بالملتين الكفر والإسلام فيكون كحديث "لا يرث المسلم الكافر" (٢)

وهناك إطلاق آخر للملة في السنة بمعنى الدين الحق فقد

وردت رواية لحديث "كل مولود يولد على الفطرة" أي على الملة بدلاً من الفطرة في قوله ﷺ "ما من مولود إلا ويولد على الملة" بدلاً من الفطرة، والدين في قوله ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً** ﴾ هو عين الملة. كما يقول ابن حجر (٣)

وإطلاقات الملة في الأحاديث التي أوردناها لم تخرج عما ورد في القرآن أي أن الملة تأتي أحياناً بمعنى الدين الحق. وقد وردت في السنة بمعنى التوحيد في قول النبي ﷺ في أذكار الصباح "أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص ، وعلى دين نبينا

---

(١) نفسه ج١ ص ١٥٢

(٢) فتح الباري ج٣ ص ٢٩٣ بتصرف يسير

(٣) فتح الباري ج٣ ص ٢٩٣ بتصرف يسير

محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين"[1] فملة إبراهيم الواردة في الحديث هي التوحيد، ودين محمد ﷺ ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً، وكلمة الإخلاص: هي شهادة أن لا إله إلا الله، وفطرة الإسلام: هي ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والإستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإنابة وتأتي أحياناً بمعنى الدين الباطل، وقد أوردنا شواهد على ذلك.[2]

---

(١) الحديث أخرجه أحمد ٤٠٧،٤٠٦/٣ والدارمي ٢٩٢/٢ والنسائي في عمل اليوم والليلة وابن السني من حديث عبد الرحمن بن أبزى وسنده صحيح انظر هامش الطحاوية ص٥٤

(٢) شرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٥٤ - مؤسسة الرسالة

المبحث الخامس:

النحلة في اللغة والاصطلاح

النحلة في اللغة

تطلق النحلة في اللغة على عدة معان منها:

الدعوى تقول انتحل فلان شعر فلان أو قول فلان إذا ادعى أنه قائله وتنحله ادعاه وهو لغيره.

ونحله القول ينحله نحلاً نسبه إليه ونحلته القول أنحله نحلاً إذا أضيف إليه قولاً قاله لغيره وادعيته عليه وفلان ينتحل مذهب كذا إذا انتسب إليه، ودان به

نحله شيئاً أعطاه من ماله وخصه به[١]

النحلة العطية ومنه قوله تعالى **﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾** أي عطية ومنحة خالصة

النحلة الديانة والمذهب ومنه كتاب الملل والنحل[٢]

وقد وردت النحلة في السنة بمعنى العطية ورد في صحيح مسلم "إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كل ما نحلته عبداً حلال" معنى نحلته أعطيته[٣]

---

(١) انظر لسان العرب ج٦ ص ٤٣٦٩ والقاموس المحيط ج٤ ص ٣٣٨

(٢) محيط المحيط للبستاني ج٢ ص ٢٠٤٩ وانظر الرائد ص ١٤٨٨، ومعجم متن اللغة ج٥ الشيخ أحمد رضا

(٣) مسلم بشرح النووي ج١٨/١٧ ص ١٩٧ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار

وهذه المعاني كلها تدور حول العطية والهبة والانتساب إلى الشئ وادعائه بالحق أو بالباطل.

النحلة في الاصطلاح

تطلق على المذهب أو الديانة أو ما ينتسب إليه المرء من دين أو مذهب[1] أو هي: المذاهب المنشعبة عن كل دين بتعدد المجتهدين[2] كما يقول "التهانوي" وقد استعمل "ابن حزم" النحلة بمعنى التمسك بالسنة يقول في كتابه الفِصَل "وثبت بذلك عند كل منصف من المخالفين صحة قولنا أن كل من خالف دين الإسلام، ونحلة السنة ومذاهب أصحاب الحديث فإنه عارف بضلال ما هم عليه (أي اليهودي والنصارى) [3]

ثم يقول "فنحمد الله كثيراً على ما هدانا له من الإسلام ونحلة السنة واتباع الآثار الثابتة"[4]

وابن حزم بصنيعه هذا يُعد مخالفاً لإجماع العلماء على التغاير بين الملة والنحلة والمذهب. يقول أستاذنا الدكتور "عوض الله حجازي" معلقاً على نص ابن حزم" عطف ابن حزم السنة ومذاهب أصحاب الحديث على دين الإسلام وهو فيما يبدو من

---

(١) مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام ص١٠

(٢) كشاف اصطلاحات الفنون ج٦ ص ١٣٣٩

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل ج١ ص ٩٤ مكتبة السلام العالمية

(٤) نفسه

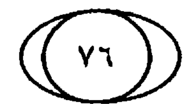
عطف المترادفات ذلك أنه ليست السنة مخالفة لدين الإسلام وليس مذهب أصحاب الحديث خارجاً عنه"[1] وهذا التغاير عند ابن حزم رأي له .لا ينقض ما اشتهر بين العلماء من التغاير بين الملة والنحلة والمذهب عموماً[2]

وهذا التغاير هو ما نذهب إليه مع أستاذنا الدكتور" عوض الله حجازي" مخالفة لما ذهب إليه ابن حزم في فصله.

---

(١) مقارنة الأديان ص ١١

(٢) نفسه



المبحث السادس :

الدين في اصطلاح الغربيين

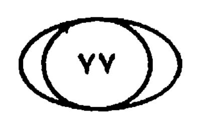
تعريف الدين عند الغربيين

تنوعت التعريفات المقترحه للدين عند علماء الغرب تبعاً للتوجهات الفكرية التي ينتمي إليها هؤلاء الباحثون فالبعض يعد الدين ظاهرة تنبع من الفرد ومن ثمَّ صاغ التعريف على هذا الاعتبار.

والبعض الآخر عدَّ الدين ظاهرة اجتماعية ووضع له تعريفاً يخدم وجهة نظره وآخرون جردوا الدين عن المعاني الغيبية- وألغوا فكرة الألوهية تماماً من تعريف الدين، وسوف نعرض بعض هذه التعريفات ونحاول أن نستخلص تعريفاً يجمع بين التعريفات المختلفة.

كلمة "دين" باللغة العربية تقابلها كلمة "Religion" المقتبسة من اللغة اللاتينية التي يَرُدُّهَا معظم الباحثون إلى مادة تفيد معنى الربط الشامل لربط الأفراد ببعض الأعمال من جهة التزامهم لها وفرضها عليهم، ولربط الناس بعضهم ببعض، ولربط البشر بالآلهة.

وكلمة "Religio" اللاتينية تدل في غالب استعمالها على معنى الشعور بحق الآلهة مع الخشية والإجلال.



أما كلمة "Religion " الحديثة فتطلق على معان ثلاثة:

١ - نظام اجتماعي لطائفة من الناس يؤلف بينهما إقامة شعائر موقوتة وتعبد ببعض الشعائر، وإيمان بأمر هو الكمال الذاتي المطلق، وإيمان باتصال الإنسان بقوة روحانية أسمى منه حالّة في الكون أو متعددة أو هو الله الواحد.

٢ - حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائدومن أعمال عادية تتعلق بالله.

٣ - احترام في خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة وهذا المعنى أقدم معاني الدين[١]

تلك هي المعاني العامة لكلمة "Religion " -بمعنى الدين- ومن التعميم إلى التعريفات المحددة التي عرّف بها الباحثون في الغرب كلمة "الدين"

١- يعرف "روبرت سبنسر" الدين بأنه "الإيمان بقوة لا يمكن تصورنهايتها الزمانية ولا المكانية [٢] أو هو الإحساس الذي نشعر به حينما نغوص في بحر من الأسرار[٣]

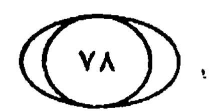
٢ - أما "ماكس ميلر" فيعرف الدين بأنه "محاولة تصور ما لا يمكن تصوره والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه هو

---

(١) انظر الدين والوحي والإسلام ضص ١٩ - ٢٠ بتصرف وانظر في الدين المقارن ص ١٩ - ٢٠ للدكتور محمد كمال جعفر - دار الكتب الجامعية ١٩٧٠ م

(٢) الدين للدكتور دراز ص ٣٤

(٣) نشأة الدين ص ٢١ د/علي النشار



التطلع إلى اللانهائي. هو حب الله[1].

أو هو "إدارك اللانهائي أو "اللا محدود " في ظواهر خاصة بدرجة مؤثرة على الشخصية الأخلاقية للإنسان" [2]

٣ - أما "هيجل" فيعرف الدين بأنه "المعرفة التي تكتسبها النفس أو الروح المحدودة لجوهرها كروح مطلقة"[3]

٤ - يعرف "دوركايم" الدين بأنه مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة. اعتقادات وأعمال تضم أتباعها في وحدة معنوية تُسمى الملة"[4] وهذا التعريف سيكون لنا معه وقفة أثناء التعليق على التعريفات التي وضعها الغربيون

٥ - يقول "سالمون ريناك" "الدين هو مجموعة التورعات التي تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا" [5]

٦ - الدين هو الأسلوب الأساسي الذي يطبع تصرفات الإنسان وتفكيره كما أنه أقوم سبيل لانطلاق الإنسان من إسار نفسه[6]

---

(١) الدين ص ٣٥

(٢) في الدين المقارن ص ٢٢

(٣) نفسه ص ٢٢

(٤) الدين للدكتور دراز ص ٣٦ ونشأة الدين ص ٢٨

(٥) الدين للدكتور دراز ص ٣٦

(٦) انظر الدين مادة ورمزاً. فمن آفاق المعرفة تأليف جورج هدلي -ترجمة فؤاد جميل . مؤسسة فرانكلين للطباعة بغداد نيويورك

والملاحظة التي نسجلها على هذه التعريفات هى :-

أولاً: أن بعض هذه التعريفات قد ضيّق دائرة الدين تضييقاً شديداً بحيث لا يستطيع تصوره إلا فئة قليلة من البشر وهم كبار الفلاسفة والعلماء كما في تعريف "سبنسر" وتعريف "ماكس مولر" ثم إن هذه التعريفات فردية ولا تتجه نحو تبيين عمومية الظاهرة الدينية وهذه التعريفات من الممكن أن نبني عليها فلسفة أما الدين فلا[1]

ثانياً: أن بعض التعريفات ركزت على الجانب العقلي والمعرفي في الدين وأهملوا جانب العبادة والسلوك -كما يظهر ذلك في تعريف "هيجل" للدين-

ثالثاً: أن بعض التعريفات قد ألغي الفكرة الأساسية في الدين وهي فكرة الألوهية كما في تعريف "سالمون ريناك" وتعريف "دروكايم".

وحجتهم أن ثمت أدياناً متعددة لا آلهة لها بل إن بعض الأديان المتحضرة لم تتحقق فيها فكرة الإله مثل البوذية والكونفوشيوسية حيث أنها تقوم على أساس أخلاقي بحت خال من تأليه كائن ما، وأن الذين يؤلهون "بوذا" و"جينا" إنما هم مبتدعون خارجون

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ٣٧ - ٣٨ ونشأة الدين ص ٢١



عن أصول دينهم الحقيقي القديم[1].

رابعاً : إن كل تعريف من هذه التعريفات يركز على جانب واحد من جوانب تعريف الدين - أي أنه غير جامع، ولا مانع وبالجملة فهى ليست وصفاً دقيقاً للدين- والسبب في ذلك أن ظاهرة التدين أكثر تعقداً وتشابكاً لجوانب عديدة من أن تُعرف تعريفاً مختصراً مركزاً، ولذا يجب من البدء أن نفهم مصطلح الدين بأوسع معنى يتناسب مع استعماله التقليدي المأثور.

ومعنى ذلك أن كل شئ يقع في نطاق الديانات الفعلية عبر التاريخ يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار عند فهم المدى الذي يتسع له هذا اللفظ كما يجب ألا نغفل في هذا الصدد أي عنصر نعتقد أهميته في الارتباط بهذه الظاهرة الجليلة. [2]

خامساً: نتوقف بوجه خاص عند تعريف "دوركايم" الذي ذهب إلى استبعاد فكرة الألوهية عن الدين وتعريفه -وهنا نتسأل- هل الأديان التي عددها "دوركايم" خلت فعلاً عن فكرة الألوهية ؟ هذا من ناحية-ومن ناحية أخرى هل إذا اخلت المعتقدات عن فكرة الألوهية يصح أن تسمى أدياناً؟

إن الإجابة عن التساؤل الأول - تتمثل في إجماع مؤرخو الأديان على أنه ليس هناك جماعة إنسانية بل أمة كبيرة ظهرت

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ٣٨

(٢) في الدين المقارن ص ٢٤

وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه ودون أن تتخذ في هذه المسائل رأياً معيناً. حقاً أو باطلاً. وما ذكره "دوركايم" من أن بعض الأديان خلت عن فكرة الألوهية -هذه الأديان لم تشذ عن القاعدة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان.

أما الإجابة عن التساؤل الثاني : فإن اصطلاح الناس على تسمية العقائد التي خلت من فكرة الألوهية ديناً فهذا اصطلاح مجاف لذوق اللغات خارج عن معهود الناس لأن هذه الأفكار الأجدر أن يطلق عليها فلسفات لا أديان- على أن الديانات التي ذكرها "دوركايم" عُرفت ودُرجت في جدول الأديان لأن في ثناياها فكرة التأليه-[1] وعلى أقل تقدير كانت في بدايتها مؤلهة وإن أنكر الأتباع فيما بعد الألوهية.

سادساً: إن العناصر الرئيسة التي يجب أن يتكون منها الدين كما حددها الدكتور دراز تتمثل في:

١ - عنصر الذات

٢ - عنصر الغيبية

٣ - عنصر الروحية

٤ - عنصر الاتصال بالعابدين

---

(١) انظر الدين ص ٣٩ - ٤٠ بتصرف



وبعد أن حدد تلك العناصر الأربعة انتهي إلى تعريف الدين بأنه " الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة"[1] والذات الجديرة بالطاعة والعبادة هى الذات الإلهية بأوصافها التي وردت في القرآن الكريم والسنة الصحيحة أي هى ما جاء بها الإسلام عن طريق الوحي إلى محمدﷺ.

---

(١) نفسه ص ٤٩ بتصرف

الفصل الثاني

مصدر الدين وبواعث التدين عند الغربيين

ويشتمل على المباحث التالية

المبحث الأول : دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين.

المبحث الثاني : البواعث على التدين عند الغربيين

ويشتمل على المسائل التالية :-

المسألة الأولى : المذهب الطبيعي

المسألة الثانية : المذهب الحيوي

المسألة الثانية : مذهب الطوطم

تعقيب : تأثر بعض المفكرين في العالم الإسلامي بالقول بالتطور في العقيدة

المبحث الثاني : تقويم هذه المذاهب

المسألة الأولى : مناقشة أصحاب المذهب الطبيعي

المسألة الثانية : مناقشة أصحاب المذهب الحيوي

المسألة الثالثة : مناقشة " دوركايم" في مذهب الطوطم

المسألة الرابعة : نقض التطور في خلق الإنسان

المسألة الخامسة : نقض القول بالتطور في الأديان

المسألة السادسة : مناقشة العقاد في قوله بالتطور في العقيدة استناداً إلى قصة إبراهيم عليه السلام مع الكواكب

المبحث الأول :

دعوى أن الإنسان هو مصدر الدين

هل الدين أمر فطري في الإنسان وُلد مزوَّدٌ به؟ أو أن الدين عرض طارئ استحدثه الإنسان؟

وقبل أن نجيب على هذه التساؤلات ينبغي أن نقرر بداية لماذا تطرح هذه التساؤلات وما قيمة الإجابة عليها؟ ونبادر فنقول تكمن قيمة طرح هذه الأسئلة والإجابة عنها. أن كثيراً من الباحثين المحدثين تعالت صيحاتهم معلنة أن البحث في أصل الدين له أهميته ونتائجه الحاسمة. لأنه إذا أمكن البرهنة على أنه من أعلى أي موحي به من عند الله. فإن ذلك يوثق صحته، ويثبت حقيقته وفرض إلزامه (وأرى أنه لن يستفيد دين من الأديان الموجودة الآن من البحث في أصل الدين مثلما يستفيد الإسلام لأنه الدين الوحيد الآن الذي يمكن إثبات أنه وحي من عند الله وأنه الوحيد موثوق الصحة، والذي يمكن البرهنة عليه دينياً وعلمياً. عكس الأديان الأخرى الكتابية أو الوضعية. ومن ثمَّ فإن البحث في أصل الدين تكمن أهميته في نظرنا أنه يدلك على أن الدين هو الإسلام) وإذا أمكن البرهنة علي أن الدين من أسفل (أي من وضع البشر أفراداً وجماعات) فهو في هذه الحالة إنتاج بشري شأنه شأن غيره من الأفكار والمخترعات القابلة للخطأ أو الصواب، وقد ينتهي الأمر

فيه إلى أنه أمر لا يوثق به وليس له سلطة الإلتزام [١]. ونحن انطلاقاً من هذا نتناول الاتجاهات الرئيسة في هذا الموضوع ونستطيع أن نضع أيدينا وسط الكم الهائل من الآراء والمقولات حول مصدر الدين على اتجاهين رئيسيين[٢] : وسوف نتحدث عن أحدهما وهو القائل بأن الدين مصدره الإنسان وهذا إدعاء الغربيين الذين سوف نعرض رأيهم في هذا المبحث، ونرجئ الحديث عن الاتجاه الآخر إلى الفصل الثالث إن شاء الله.

هذا الاتجاه يمثله مجموعة من الباحثين الغربيين وتقوم حجتهم على أن الإنسانية لابد وأن تكون قد عاشت قروناً طويلة في حياة مادية خالصة قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة والنجارة قبل أن تفكر في مسائل الدين والروح بل قال أحدهم وهو "فولتير": إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من القساوسة والكهنة الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى والسخفاء[٣]

وهذا الرأي الحديث من أمثال "فولتير" سبقه به جماعة من السوفسطائين الذين نظروا بسخرية إلى الدين والقانون فقديماً زعم السوفسطائيون "أن الإنسان كان في أول نشأته بغير رادع عن

---

(١) انظر بتصرف في الدين المقارن ص ٤٠

(٢) انظر العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع د/ محمد بيصار مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣ م

(٣) الدين للدكتور دراز ص ٨٠

قانون، ولا وازع من خُلُقٍ وأنه كان لا يخضع إلا إلى القوة الباطشة ثم كانت أن وُضعت القوانين فاختفت المظاهر العلنية من هذه الفوضى البدائية، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهناك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شئ وتسمع وتهيمن بحكمتها على كل شئ"(١)

وإن أصحاب هذا الاتجاه على اختلاف مشاربهم قديماً وحديثاً يجمعهم رأي واحد هو أنهم لا يرون مصدراً للدين خارج هذا العالم الحسي، ومن الطبيعي أن يُجمع هؤلاء على إنكار الألوهية كحقيقة موضوعية ذات وجود فعلي ثابت شامل ومستقل كما يجمعهم القول بالتطور في الديانات(٢)

يقول "رالف لنتون" "إن عقيدة القادر المطلق في نهاية الأمر الذي لا يرضى إلا بالطاعة الكاملة والوفاء كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامي لقد خلق هذا النظام جبروتاً غير عادي، وكانت لنتيجته أن شريعة موسى خرجت بقوائم مفصلة عن المحرمات في كل مجال من الحياة الإنسانية، وقدآمن بهذه القوائم الطويلة العوام الذين يتقبلون أحكام آبائهم العمياء، ويطيعونها وماالتصور الإلهي (اليهودي) إلا خيال مثال لأب سامي. مع شئ

---

(١) نفسه ص ٨١

(٢) الدين المقارن ص ٤٨

من المبالغة والتجريد في الأوصاف والطاقات"[1]

ونلاحظ هنا أنه يتحدث عن الدين اليهودي كنموذج وإلا فهو يرفض جميع الأديان ويعتبر أنها من صنع الإنسان أو المجتمع -المهم أن الدين ليس من عند الله- كما يزعم، ويذهب البعض إلى أن العوامل التاريخية كانت أحد الأسباب الرئيسة التي جعلت الإنسان يخترع الدين -ويفترض قوى خارجية يلجأ إليها عند الحاجة - وهذه القوة هى الإله - اخْتُرِعَ ليجتمع الناس حوله ويهرع الجميع إلى رضاه.

يقول "جوليان هكسلي" : لقد خلق العقل الإنساني الدين، وأتم خلقه في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجية[2] ويضيف قائلاً "فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته، وهذه البيئة قد فات أوانها أو كاد، وقد كانت هى المسئولة عن هذا التعامل فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها فلا داعي للدين[3] ويذهب إلى أبعد من هذا حين يقول : لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا[1]وهى لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات. لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم بالعقيدة الإلهية حتى

---

(١) نقلاً عن الإسلام يتحدى ص ٣٧ Tree of culture , Ralphlinton

(٢) الإسلام يتحدى ص ٣٨

(٣) نفسه

اخترع فكرة الإله الواحد. وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته، ولاشك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور"(١) إنه كإخوانه في الغى ينكر أن يكون الدين من عند الله ويؤكد أنه من صنع الإنسان ويجمع كل مظاهر الدين. ويلغيها بكلمة واحدة.وعلى الرغم من أن الدين من صنع الإنسان إلا أنه كان مناسباً في مرحلة معينة أما وقد تطور المجتمع فقد فقد الدين ضرورته في الوقت الحاضر وسوف يكون لنا وقفة مع هذا الادعاء على صفحات البحث إن شاء الله.

وإذا كانت هذه الأقوال آراء لبعض الملحدين -يعلنونها للناس ويكتبونها في مؤلفاتهم- فإن الأمر الأدهى والأمر أن تقوم دول على هذه الأفكار وتتبنى هذه الآراء. يقول " إنجلز" فيلسوف الشيوعية "فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة في الأساس الذي نمونا عليه نحن الناس نتاجها أيضاً، وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شئ أما الكائنات العلوية التي ولدت في مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاسات خيالي لوجودنا نحن" (٢)

أما السبب في ترويج مثل هذه الآراء وانتشارها وقيام دول على أساس منها فمرده إلى بعض الأمور منها:ـ

---

(١) انظر الإسلام يتحدى ص ٣٨ - ٣٩

(٢) مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٢٧٢ وانظر ص٢٩٣ وما بعدها

١ - القدوة غير الحسنة والإنحلال الخلقي عند رجال الكنيسة. إضافة إلى الاضطهاد الديني الذي مارسه رجال الكهنوت ضد العلم وأصحابه.

٢ - ظلم القوانين الوضعية، وسوء توزيع الثروة العامة التي منحها رجال الدين لأنفسهم بغير وجه حق[١]. كل هذه الأمور وغيرها الكثير أدى إلى تلك الآراء وشيوعها إضافة إلى أمر نحسبه جوهري يتمثل في الغرور الذي صاحب الاكتشافات العلمية إذ ظن المخترعون وأفراد المجتمع على السواء أنهم وضعوا أيديهم على الحقيقة متمثلة في الاكتشافات العلمية بعيداً عن الدين وتكاليفه.

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ٨٠، وفي الدين المقارن للدكتور كمال جعفر ص٤٩ وانظر المعالجة القيمة لفساد الكنيسة ورجال الدين في مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٥ - ٧٨

المبحث الثاني

البواعث على التدين عند القائلين بأن الإنسان مصدر الدين

يجب أن نفرق بين مصدر الدين، وبين الباعث على الدين.

فمصدر الدين عند أصحاب هذا الاتجاه هو الإنسان نفسه ومن ثمّ فإن كثيراً من هؤلاء ينكرون الألوهية ويرفضون ما وراء الطبيعة والمادة، ويرون أن الإنسان نشأ على الأرض وكان تطويراً وارتقاءً طبيعياً للخلية الأولى التي انتهت إلى فقاريات راقية كالقرود والنسانيس ثم الإنسان [1]

وهؤلاء لهم مذاهب شتى في الباعث على التدين سوف نتعرض لأهمها على الصفحات القادمة إن شاء الله.

---

(١) الإنسان في ظل الأديان ص ٤٢

أهم النظريات في تفسير الباعث على التدين وتشمل المسائل التالية:-

المسألة الأولى: نظرية المذهب الطبيعي

يرى أنصار هذا المذهب أن الباعث على التدين لدى الإنسان مظاهر الطبيعة من حوله وقد انقسموا إلى فريقين فريق ذهب إلى أن الذي دفع الإنسان إلى التدين

أ- التعظيم للطبيعة الناتج عن التأمل فيها

وحجة هذا الفريق أن الطبيعة بمظاهرها المختلفة بما لها من قوة مستقلة عن إرادة البشر يخضع الجميع لها، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها أو تعديل نظامها فيجتمع للإنسان القديم شعور مؤلف من دهشة وإعجاب رأي به الكون أشبه شئ بالمعجزة[١] ومن أصحاب هذا الرأي "ماكس موللر" الذي أيد وجهة نظره بدراسة الفيدا الهندية حيث وجد أن أسماء الآلهة إنما هي أسماء مشتركة من الممكن ببساطة التوصل إلى أصلها اللغوي، وتعني كلها ظواهر الطبيعة الرئيسة ومن الأمثلة على ذلك كلمة " Agnl" وهو اسم أحد الآلهة الرئيسيين لم يكن لهذا الاسم أول الأمر أية دلالة دينية بل كان يشير فقط إلى فعل النار المادي كما تدركه الحواس، والذي يدل على أن هذا المعنى كان بدائياً أننا نجده في اللغات الهندية الأوربية ففي اللاتينية "Ignis" وفي الليتوانية "Ugnis"

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ١١٤

وفي السلافية القديمة "Ogny" وكل هذه الكلمات متصلة بكلمة "Agnl" في رأي " ماكس موللر"

أما ما تعبر عنه "Dyaus" فهو الشمس المتلألئة، ومعنى هذه الكلمة وغيرها من الكلمات يدل على أن أول عبادة إنما اتجهت إلى عبادة الطبيعة في قواها وعناصرها المختلفة. فكانت القوى والعناصر الطبيعية أولى الأشياء المُؤَلَهَةً، وهكذا بدأت الإنسانية دينها[1]

ب - الباعث على الدين الخوف من مظاهر الطبيعة

ذهب إلى هذا الرأي جيوفنس "Jovons" حيث رأى أن النظر في مشاهد الطبيعة كان على الجملة هو منشأ العقيدة الإلهية ولكنه يقرر أن الظواهر العادية لم تكن كافية لإيقاظ فكرة التدين. نظراً لأن تكرارها على الحواس تجعل النفس تألفها، ولكن الطبيعة المفاجئة مثل الزلازل، والبراكين والطوفان، والصواعق هى التي دفعت الإنسان إلى التدين بما هو مفطور في غريزته استحالة أن يحدث شئ من لا شئ إلى درجة أن الطيور والحيوانات فضلاً عن الإنسان تفزع عند سماع صوت مزعج، وتلتفت إلى الصوت المزعج بحثاً عن فاعله أو مصدره. فكان من الطبيعي أن هذه الحوادث الرهيبة المفزعة تُزعج من يشهدها وتحفزه إلى السؤال

---

(١) انظر نشأة الدين ص ٧١ - ٧٢ للدكتور النشار وانظر كتاب الله في نشأة العقيدة الدينية للعقاد ص ١٧/١٨

عن مصدرها وإذ كان لا يرى لها سبباً ظاهراً اضطر عقلياً أن ينسبها إلى سبب خفي ذي قوة هائلة[1] هذه القوى الطبيعية بمظاهرها المختلفة ومن ثمَّ انبعث ولاء الإنسان لقوى أو كائنات خافها أو ظنها قادرة على دفع الخوف والرهبة من نفسه فحرص على التقرب لها ليتقي شرها، ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه فأصبحت قوى الطبيعة وكائناتها آلهة تُعبد. ما ينفع عبده ليأمن أذاه ويتقي شره وما يضر عبده ليأمن أذاه"[2]

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ١٢٦

(٢) انظر في الدين المقارن ص ٣٠ - ٣٣، وانظر الإنسان في ظل الأديان ص ٣٣

المسألة الثانية

نظرية المذهب الحيوي (Amimisme)

تعرضت نظرية المذهب الطبيعي أو الكوني في الباعث على التدين إلى النقد من جانب كثير من الباحثين ورفضوا هذا المذهب الطبيعي. وذهبوا إلى أن الدافع على التدين هو المذهب الروحي. وقد ذهب إلى هذه النظرية "تيلور" في كتابه "المدنية البدائية " وتابعه عليها مع تعديل طفيف الفيلسوف الإنجليزي "سبنسر" في كتابه "مبادئ علم الاجتماع" ومفاد هذه النظرية:

١- أن في الوجود كائنات عاقلة سواء أكانت في الأصل أرواحاً إنسانية انتقلت عن أبدانها أم كانت منذ بدايتها أرواحاً مستقلة كالجن والملائكة.أم كانت أرواحاً أعلى من ذلك وأسمى.

٢ – أن هذه الكائنات الغيبية المزودة بتلك القوى الخارقة قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية، وتترك فيه أثراً من آثارها العجيبة هكذا تنشأ عقيدة التأليه التي تمت على مرحلتين :-

الأولى: في بقاء أرواح الموتى. وهذه الفكرة تعتمد في جوهرها على تجربة الأحلام، والتفسير البدائي. لهذه التجربة خلاصته أن الحلم عند البدائيين انتقال حقيقي لروح الشخص المرئي في المنام فيراه حقيقة على شكل طيف.

وإذا كانت أرواحهم تجيء إلى الرائي في المنام كما تجيء أرواح الأحياء دل على بقاء أرواح الموتى واستمرار اتصالها بالأحياء وتمكنها من نفعهم وضرهم فاقتضى الأمر التقرب إليها لتجنب أذاها واستدرار عطفها.

أما المرحلة الثانية: وهى عبادة أرواح الكواكب والعناصر الطبيعية فيرى "تيلور" أن العقلية البدائية فيها من السذاجة الطفولية مايجعلها لا تميز بين الجماد والحيوان، ويجعلها تعامل كلاً منهما معاملة الكائنات الحية كما يداعب الطفل دميته ويناجيها كأن فيها روحاً. بينما رأي "سبنسر" أن القدماء عبدوا الطبيعة لأن الأسلاف كانوا يُسمون أحياناً بأسماء مظاهر الطبيعة فكان بعضهم يُسمى نجماً، والآخر نمراً، والثالث حجراً ثم بعد ذلك انتقل التقديس من أصحاب تلك الأسماء إلى الأشياء المسماه بتلك الأسماء نفسها [(١)]

يقول "برجسون" "والواقع أن الطبيعة قد وهبت الإنسان ملكة خاصة تشبه الخيال من بعض الوجوه تلك هى الوظيفة الأسطورية أو الملكة الخرافية التي بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يخترع شخصيات خيالية هذه الشخصيات قد تكون (أرواحاً) بادىء الأمر ثم تتحول إلى آلهة فيما بعد" [(٢)]

---

(١) نشأة الدين ص ٣٣ - ٣٦ - ٣٧ وانظر الدين للدكتور دراز ص ١٣٣

(٢) الإنسان في ظل الأديان ص٣١

المسألة الثالثة

مذهب الطوطم (Totem)[1]

ذهب إلى هذه النظرية عـالم الاجتمـاع الفرنسـي "دوركـايم" ومفاد هذه النظرية أن في معظم القبائل الاسترالية نظامـاً لـه أهميـة عظمى في الحياة الاجتماعية وهو "العشيرة" هذه العشيرة مرتبطـة ليس برباط الدم أو المصاهرة أو غيرها، وإنما بـإطلاق اسم واحـد عليهم، وهذا الاسم هو نوع معين من الأشياء المادية تعتقد العشيرة أن لها به أوثق الصـلات ويسمى هذا النـوع " الطوطم" و"طوطـم" القبيلة هو "طوطم" كـل فـرد مـن أفرادهـا ولكـل عشيرة طـوطمهـا الخاص بها. أو الأشياء التـي تستخدم "طواطـم" فهـى فـي معظمهـا متصلة بأنواع نباتية أو حيوانية. وهى الأشهر أما الأشياء الجماديـة فإن القائمــة التـي قدمهـا الذيـن دِللـوا علـى هذه النظريـة خلـت مـن الرموز الجمادية إلا عدداً ضئيـلاً جداً لا يحمـل أسـماء حيوانيـة أو نباتية[2]

"والطوطم" الذي تتخذه العشيرة ليس فرد إنما هـو نـوع أي نوع الحيوان على العموم وكان الطوطم الذي تتخذه العشيرة شـعاراً

---

(١) هذا الاسم مأخوذ من لغة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية وهو اسم لم يتعلق بعد على ضبطه ولا تحديد معناه فهو في المشهو To temولكن يكتب أيضاً Totam أو Toodim أو dodaim أو ododaim ويفسر تارة بمعنى موطن العشيرة ومستقرها وتارة بمعنى العلامـة أو الشعار. انظـر الديـن للدكتور دراز ص ١٥١

(٢) نشأة الدين ص ١٠٠، ١١٤،١١٥ والدين للدكتور دراز ص ١٥١

لها يرسم على كل الأمتعة التي تستخدمها العشيرة بل كانوا يحملونه معهم إلى القتال ويدافعون عنه أعظم دفاع.

وهذه الطواطم سواء من النباتات أو الحيوانات.. كان تقديسها يؤدي إلى تحريم أكلها.اللهم إلا في بعض الأكلات الدينية، وأن من يقدم على هذا فجزاؤه الموت، لأنه كان يعتقد أن هذه الطواطم يسكن فيها عنصر هام لا يمكن أن يدخل في المكان غير المقدس إلا إذا أُعطيه وقضى عليه، وإن كانت بعض العشائر أباحت لأفرادها الذين بلغوا سناً معيناً أكل تلك النباتات والحيوانات[1]

ويبدو أن تحريم أكل هذه الحيوانات إنما هو تحريم شكلي لأن ترخيص أكله في بعض الأحوال ثم توسيع نطاق هذا الترخيص سيوسع بالتالي من دائرة الإباحة لأنها الأصل كما يرى "سبنسر وجلين" اللذان اعتبرا أن هذه التحديدات والنواهي طارئة على المجتمع الطوطمي[2]. ولكن التساؤل هنا هل يمكن أن نرى في الطوطمية مذهباً في الوجود يحاول تفسير الكون أو بمعنى أدق: هل الطوطمية هي تلك العقائد الخاصة الضيقة التي لا تتناول سوى

---

(١) نشأة الدين ص ١١٥ وانظر مصطلح الطوطمية في الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ملحق -معجم المصطلحات ص ١٠٩٩ - ١١٠٠ وضع الأستاذ حمدي عبيد

(٢) نشأة الدين ص ١١٥



الرمز الطوطمي، والنبات والحيوان الذي تشير إليه الرموز. ثم أفراد العشيرة؟

إن مجموعة العقائد المتنافرة أو الجزئية لا يمكن أن تُكَوِنَ ديناً بمعنى الكلمة لأن الدين الحقيقي هو ما يحاول الإحاطة بالكون كله وأن يضع تصوراً عاماً له. وتلك هى المحاولة التي أرادها "دوركايم" حين أراد أن يجعل من الطوطمية مذهباً في الوجودديناً يفسر الكون وهو في هذا يُشَبِهُ الطوطمية بأي دين آخر من الأديان التي قامت بهذا العمل[1]

بل يذهب البعض إلى أبعد من هذا حين يعتبرون أن الطوطمية تمثل أصلاً للأديان بين البدائيين، والهمج مستندين إلى ما تحقق من أن شعائر الطوطم منتشرة بين مئات القبائل الهمجية في استراليا وأفريقيا وأمريكا وبعض المناطق الأسيوية[2]

أما "تايلور و ويلكن" فقد ذهبا إلى أن الطوطمية قد نشأت عن عبادة الأرواح التي كان السلف محوراً لها وكانت موضع تقديس الخلف وعبادتهم، وكانت في مبدأ الأمر قائمة بذاتهامنفصلة عن الأجسام ثم أخذ الاعتقاد بتناسخ الأرواح يتداخل شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر ببعض الشعوب البدائية إلى الظن بأن هذه الأرواح قد

---

(١) نفسه ص ١٢٦

(٢) الإنسان في ظل الأديان د. عمارة نجيب ص ١١٤

حلت في أجسام بعض من الآباء والأجداد واتجه إليها التقديس[1].
وقد أيد هذان الباحثان نظريتهما بما لاحظوه في بعض جزر أندونسيا من تقديس الناس للتماسيح هناك[2].

أما "جيفونس" فيذهب إلى أن الطوطمية قد انبثقت عن عبادة مظاهر الطبيعة وذلك أن الإنسان البدائي تحت تأثير الخوف والرهبة من مظاهر الطبيعة من حيوان ونبات وجماد حرص على التقرب إلى بعضها ليتقي شرها ويضمن نفعها ويستدر عطفها عليه ولم يكن ثَمَّةَ وسيلة أقوى من القرابة فأعضاء العشيرة الواحدة يتعاونون لأنهم أقرباء أو لأنهم يعتبرون بعضهم بعضاً سواء ولذلك اصطنع العقل البدائي صلة قرابة بينه وبين بعض مظاهر الطبيعة ولم يُقم هذه الصلة بين أفراد وأفراد، وإنما أقامها بين العشائر الإنسانية من جهة والفصائل الحيوانية والنباتية والطبيعية من جهة أخرى. لقد نظر البدائي إلى عالم الحيوان والنبات نظرته إلى عالم الإنسان فلم يعتد بأفراد هذا العالم وإنما اعتد بفصائله وأنواعه وعمد إلى هذه الفصائل والأنواع فربطها بعشائرها بوشيجة القرابة ولُحْمَةَ النسب[3]

ومن عجيب الأمر أن تقديس الطوطم لا يزال حتى الآن له

---

(١) انظر الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافي نقلاً عن الإنسان في ظل الأديان ص١١٨

(٢) انظر نشأة الدين د/ على سامي النشار ص ١٤٦

(٣) انظر الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافي ص٩٥ ومابعدها نقلاً عن الإنسان في ظل الأديان ص ١٢١ واظر نشأة الدين للدكتور على سامي النشار ص ١٥٠ - ١٥١

وجود بين القبائل الاسترالية الأصلية وبين المجتمعات الوثنية بماليزيا وأيضاً بين الهنود الحُمر بالساحل الشمالي الغربي في أمريكا. ويذكر بعض الباحثين أنه لازالت إلى الآن توجد آثار منه في أوربا والدليل على ذلك تسمية مدينة بيرن(B erne) في سويسرا حيث تعظم الفيلة وكلمة بيرن في الألمانية جمع بير بمعنى فيل[١]

كانت هذه أهم النظريات التي تحدثت عن الباعث على التدين عند الإنسان بعد أن قررت أنه مصدره. وهناك بعض الاتجاهات الأخرى أقل شهرة من التي قبلها. نتحدث عنها إجمالاً بكلمة موجزة

---

(١) انظر معجم المصطلحات الملحق بالموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ج٢ ص ١١٠٠ وضع الأستاذ حمدي عبيد

بعض الاتجاهات الثانوية التي تحدثت عن الباعث على التدين

١ - الشعور بالحب

هذا الاتجاه يقرر أصحابه أنه مادام أن التدين مصدره شعور الإنسان فإن اللائق أن يكون هذا الشعور متعلقاً بالحب لأنه المَعِيْنْ الذي لا ينضب في الحياة الدينية، وهو الذي يفسر التضحيات والأعباء التي يتحملها المتدينون، ومعنى ذلك أن الغريزة الدينية -على فرض وجودها تتضمن كل المقومات التي تدفعها نحو الوجود الإلهي- لأن الحب ليس إلا تعبيزاً عن نزعة أكيدة، ورغبة ملحة في داخل الإنسان ذاته، وهذا ما جعل بعض الباحثين في الأديان يعتبرون أن الدين في كل صوره ينتهي أخيراً إلى الميل والشوق إلى الله والدأب في البحث عنه، وأن الحق الذين ترثه كل الأديان يتمثل في هذه الحقيقة الكبرى وهى أن الكل يبحث عن الله، وأن الصور المختلفة للأديان تدرك غاية الدين بدرجات مختلفة[١]

٢ - الاتجاه النفسي

ومفاد هذا الاتجاه أن الباعث على الدين عند الإنسان شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وهما اللتان تتألف منهما حياة النفس في أيسر مظاهرها. إن قَدَرَنَا قد رسم دون استشارتنا فَقُضِيَ علينا أن نكون في زمن معين، ومكان معين وترك

(١) انظر الدين المقارن ص ٣٥- ٣٨

لنا ميراثاً من الملكات والطبائع لم يكن لنا فيه شئ من الاختيار؟ بل إننا لانجد في أنفسنا، ولا في أي مجموعة أخرى من الكائنات الفردية السبب الكافي لوجودنا، ولا غايته النهائية المعقولة ولذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نبحث عن هذا السبب، وهذه الغاية خارجاً عنا في الوجود العام، وما التدين الإ الاعتراف بهذه التبعية في تسليم وخضوع.هذا الشعور بالتبعية هو الأساس التجريبي للعقيدة الإلهية، ومهما تكن فكرة الألوهية في عقولنا ناقصة غير محدودة فإن موضوعها لا يفلت قط من شعورنا. فهو حاضر لدينا. بل يفرض نفسه علينا في هذا الشعور حتى إنه يسوغ لنا أن نضع هذه المعادلة الحسابية مطمئنين. إن شعورنا بالتبعية المطلقة هو شعورنا بحضور السر الإلهي فينا. هذا هو الينبوع العميق الذي تفيض منه الفكرة الإلهية بقوة لا تقاوم[1]

وأخيراً كانت هذه الآراء ملخص الاتجاهات التي ذهبت إلى **أن الإنسان هو الذي صنع الدين على اختلاف فيما بينهم حول الباعث على التدين إنْ من جهة الطبيعة رغبة أو رهبة أو منْ جهة الأحلام التي يراها الإنسان والذي أخذ منها باعثاً على التدين -أو من جهة الشعور بالحب كباعث دفع الإنسان إلى التدين- أو الاتجاه الأخير الذي يستند على الشعور النفسي.**

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ١٣٥-١٣٨

تأثر بعض المفكرين في العالم الإسلامي بالقول بالتطور في العقيدة

نلاحظ أن الفكرة التي تجمع هذه المذاهب جميعها -على الرغم من اختلافهم- هي فكرة التطور أي أن الدين لم يكن. ثم اخترعه الإنسان بادئاً بالتعدد في المعبودات منتهياً إلى التوحيد. وينبغي أن نلاحظ أن التوحيد الذين ذهبوا إليه ليس هو التوحيد الذي جاء به الأنبياء، وإنما توحيد المعبودات القديمة في معبود واحد. ويُعِدُون هذا من التطور العقلي الذي وصل إليه الإنسان.

وقد انتقلت هذه الآراء إلى العالم الإسلامي وتأثر بها بعض الباحثين. نعم خالفوا الغربيين في أن المعبود الواحد هو ما جاء به الأنبياء ودعوا إليه. يقول الأستاذ "سليمان مظهر" في كتابه قصة الديانات "جاء وقت اعتقد فيه الإنسان أن للأصنام قدرة إذا تقدم لها بقربان على أن تفعل له الخير وتلحق الضرر بأتباعه، ولكنه مع مرور السنين بدأ يتصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ينظمون الحياة على وجه الأرض وتباينت صور هذا الخالق في أذهان البشر حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد أو رب الأرباب أو كبير الآلهة"[١]

---

(١) انظر قصة الديانات - المقدمة (ط -ع...) والمقدمة شرح كامل للتطور الذي لحق بالديانات حتى انتهى إلى التوحيد

ومنهم الأستاذ "طه الهاشمي" في كتابه "تاريخ الأديان وفلسفتها" على ما يذكر الدكتور عوض الله حجازي[1]

ومنهم الأستاذ "العقاد" في كتابه "الله" يقول "يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأديان هى:-

١ - دور التعدد Polytheism

٢ - دور التمييز والترجيح Henotheieism

٣ - دور الوحدانية Monotheism [2]

ويذكر عن دور الوحدانية (أن الأمة تجتمع على عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة، ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها، ويحدث أيضاً أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع[3]

ويواصل انتصاره لهذا الرأي بقوله "ولاتصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها

---

(١) انظر مقارنة الأديان ص ٣٨

(٢) الله كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ص ٢٨

(٣) نفسه ص ٢٨

المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج، وقبائل الجاهلية فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة"[1]

ويؤكد فكرة التطور بقوله "فالتطور في الديانات محقق لا شك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات بل كان على سلالم مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى"[2]

ثم يقول "قديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ما تقع عليها العين. وتَعَلَّلَ به الخليقة والحياة فإذا دخلت هى أيضاً في عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله في حاجة إلى خالق موجد للأرض، والسماء، والكواكب، والأقمار وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن ﴿ **فلما جن عليه الليل رءا كوكبا قال هذا ربي** ﴾ [3] وسوف نناقش دعوى الأستاذ العقاد بالتفصيل في مسألة مستقلة ضمن المبحث الثاني.

---

(١) نفسه ص ٢٩

(٢) نفسه ص ٣٢

(٣) سورة الأنعام الآيات٧٦-٧٩ وانظر الله - كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ص ٣٦،٣٧

المبحث الثاني

تقويم هذه المذاهب

سوف نناقش هذه الاتجاهات وندحض ماذهبوا إليه من أن الدين مصدره الإنسان وأن الباعث عليه ما زعموه.

في المسائل التالية:-

المسألة الأولى: مناقشة أصحاب المذهب الطبيعي:

من الملفت للنظر أن الذي فند آراء أصحاب هذا الاتجاه ثلة من الغربيين وكانوا على المستوى الفكري والعلمي لأصحاب المذهب الطبيعي إن لم يتفوقوا عليهم. -ولكن نقد هؤلاء لأولئك- كان القصد منه إبطال وجهة نظر الخصم ليخلص الناقد إلى إثبات ما ذهب إليه هو، ويبدو هذا واضحاً في نقد "دوركايم" للمذهب "الطبيعي" و"الحيوي" كباعثين على التدين وإبطالهما لإثبات صحة ما ذهب إليه هو من أن الدين من اختراع العقل الجمعي متمثلاً في الطوطم ونستطيع أن نجمل أهم ما وُجه إلى المذهب الطبيعي من نقد في النقاط التالية:

١ - إن ما استند عليه أصحاب المذهب الطبيعي بعد دراستهم للفيدا الهندية وملاحظاتهم حول وجود أسماء الآلهة بأسماء مظاهر الطبيعة كالشمس، والنار، التشابه بين هذه الأسماء

ومظاهرها عند كثير من الأمم الأخرى كما ذهب "ماكس موللر" لقد انبرى جماعة للرد عليه فيما ذهب إليه، وأثبتوا إن أصول الكلمات التي زعم "موللر" تشابهاً بينها وبين غيرها في الديانات الأخرى لم توجد منفصلة على الإطلاق بشكل يدل على أنها قائمة بذاتها، وإذا كان الأمر كذلك فلم يعد من الممكن أن تكون هذه الأصول للغة البدائية للهنود و الأوربيين فقد نشر Oldemlurg أبحاثه عن الفيدا في كتابه Lareligionduvead – وحاول أن يثبت أن آلهة الفيدا إن كانت ثمة آلهة فيها لا تحقق فيها الصفة الطبيعية التي ينسبها إليها "موللر" [1] وهذا النقد قائم على البحث والدراسة والاستقصاء الأمر الذي يجعل قبوله أولى من كلام "ماكس موللر"

٢ – لو كان مبعث العقيدة هو مظاهر الطبيعة، وهدف العبادة هو استرحامها لَمَا استمر الإنسان على تدينه بعد ما ظهر له عدم استجابة الطبيعة له؟ والحاصل أن الديانات لم تنقطع ولن تنقطع. فلابد أن يكون لها منشأ وهدفٌ آخر ثم إذا سلمنا جدلاً بعبادة الطبيعة للانبهار بها والوقوف أمام مظاهرها فكيف نفسر عبادة الأحجار والأشجار والحيوانات والأشياء التافهة التي لا توحي بهذا الشعور [2] ثم إن الذين ذهبوا إلى أن مظاهر الطبيعة وتأمل الإنسان لها هو الذي دفعه على التدين. قول يحتاج إلى نظر فإن

(١) نشأة الدين ص ٨٠/٨١

(٢) الدين ص ١١٩

رتابة الطبيعة لا تولد إلا إحساسات مؤقتة ولا يمكن أن تُعد أساساً لمذاهب ثابتة وطقوس دائمة هذا من ناحية، ومن جهة أخرى هل الإنسان البدائي كانت عنده المقدرة الفكرية والتأمل في تلك المظاهر واستكشاف العجائب في هذا النظام؟[1]

٣ - أما القول بأن الإنسان عبدها خوفاً منها كقول "ساباتييه" إن شعور الرهبة والخوف من القوى العلوية لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية ولا بد له من شعور آخر يوازنه ويلطف من حدته ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة، وشل الحركة، وولد اليأس ومن وقع فريسة للرعب إنْ لم يتصور إمكان الخلاص لم يفكر في البحث عن عون ينقذه من الخطر الذي وقع فيه. فلابد لتحقيق الشعور الديني من مقاومة الخوف والرهبة بما يعادلهما من الأمل والرجاء اللذين يَبْعَثَانِ على الدعاء والتضرع[2]

هذه هى أهم ماوُجه إلى النظرية الطبيعية التي ذهب أصحابها إلى أنها الدافع على التدين. وينبغي أن نلاحظ أن فكرة الخوف فكرة رئيسة في الأديان الكتابية. والإسلام مليء كتابه بالآيات التي تخوف العباد وتحذرهم ولكن هناك فرق شاسع وبون بعيد بين الخوف الذي تمليه الطبيعة كقوة غاشمة ليس لها هدف ولا غاية، ولا نفع ولا ضر، وبين الخوف الذي ورد في الأديان

---

(١) نشأة الدين ص٨٧

(٢) الدين للدكتور داراز ص ١٢٦/١٢٧

الكتابية.وورد أيضاً في الإسلام. لأن الخوف الوارد في الكتب السابقة على لسان الأنبياء قبل محمد ﷺ إن صح نسبته إليهم فإنه بمثابة التحذير والتنبيه من أجل المصلحة الغائية له ثم إن هذا الخوف لا يعم مطلق الإنسان وإنما يتوجه إلى المنحرف الذي يريد أن يفسدَ الحياة ويهلك فيها الحرث والنسل هذا من ناحية ثم إن الخوف على لسان الأنبياء لا يكون من مظاهر الطبيعة -لأنهم يُعَلِمُوْنَ أتباعهم أن الكون بما فيه ومنْ فيه مسخر للإنسان- والأنبياء يسعون إلى تبديد الخوف من أي كائن سوى الله ولذلك ينصرف الخوف في معظم الحالات إلى الأمور التي تتعلق بالحياة المستقبلية أي في الآخرة. فإذا ما تركنا الأديان الكتابية وجئنا إلى الإسلام فإن آيات القرآن تجمع بين الترغيب والترهيب في كثير من الآيات بل إن بعض آيات القرآن تبدأ بجانب الأمن والأمان والتبشير أولاً. وبعد ذلك تأتي آيات العذاب مثل قوله تعالى**﴿نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم﴾** (١)

(١) سورة الحجر الآية ٤٨ وانظر المعالجة القيمة لهذه الفكرة في الدين المقارن ص ٣١-٣٣ للدكتور كمال جعفر. رحمه الله

المسألة الثانية

نقد المذهب الحيوي

توجه مجموعة كبيرة من الباحثين الغربيين لتفنيد ماذهب إليه البعض من أن الأحلام المنامية هى الباعثة على التدين وتمثل نقدهم في الآتي:-

١ - إن الصور التي يستحضرها البدائي غير متماسكة وغير مطردة. ثم إنه لا يستطيع أن يعتقد أن مايراه حقائق ثابتة على الدوام لا اختلاف فيها ولا تباين. والبدائي لا يستطيع أن يميز في أحلامه بين ما يكون ناشئاً عن وحى وإلهام، وما يكون منبعثاً عن أوهام المخيلة[١]

٢ - أثبت علم الأجناس أن فكرة البدائي عن النفس كانت فكرة مركبة غير بسيطة فلم يكن يعتقد أن له نفساً واحدة بل له عدة نفوس، وثبت أيضاً أن الإنسان قديماً كان يعتقد أن له مشاركات في اسم أو في ظل. أو في طوطم وأن كل هذه الأشاء توجد في وقت واحد ويتصل بها الإنسان. قد تمتزج وتتشابك ولكنها لم تنبثق إطلاقاً عن إحساس بفردية واحدة.

أما المذهب الحيوي فيضع تصوراً فردياً للأنا Ego ولكن

---

(١) انظر نشأة الدين ص ٤١ - ٤٢



هذه الفكرة التي جعلها "تيلور" التطور العقلي للإنسان لم يصل إليها البدائي على الإطلاق[1]

٣ – وكما يقول "دوركايم" إن البدائيين ليسوا في حاجة إلى تفسير ظاهرة الأحلام وإنهم وإن احتاجوا إلى تفسيرها فليس الطريق الذي وضعته النظرية. ثم إن تجربة الحلم إن سلمنا أنها تكفي للاعتقاد بالروح فإنها لا تكفي لتعليل الاعتقاد بألوهية مصدرها.فإن من الرؤى ما هو هذيان، وأضغاث أحلام، وفيها ما هو مجرد ذكريات ماضية عادية. وليس شئ من ذلك يثير عقيدة التأليه. ثم إنه من جهة أخرى لا يُعْرَفُ في أمة من الأمم أن احترامها للموتى أو الأسلاف وصل بها إلى عبادة جميع الموتى أو جميع الأسلاف وإنما الذي كان موضعاً للتقديس عندهم من عُرف في حياته بقوة خارقة ممتازة تركت أثراً باقياً في الطبيعة أو في المجتمع. فليس الموت إذاً شرطاً ولا سبباً في هذا التقديس، وإنما معيار التقديس هو تلك القوة السرية الخارقة أو تلك الجوهرة الإلهية الي تتجلى آثارها في الحوداث الإنسانية العظيمة[2]

وينبغي علينا أن نذكر بأن نقد "دوركايم" وغيره للمذهب الحيوي كان تكأة لإثبات وجهة نظره الداعية إلى أن الباعث على التدين عند الإنسان هو العقل الجمعي الذي يتخذ رمزاً حيوانياً

---

(١) نفسه

(٢) انظر الدين ص ١٣٤

شعاراً له. فهو نقد موجه من قِبَلِ "دوركايم" وأنصار مدرسته لإثبات مذهبهم بعد نقد المذاهب الأخرى.

المسألة الثالثة:-

نقد نظرية "دوركايم" في (الطوطم)

سبق وأشرنا إلى أن "دوركايم" وجه سهام نقده لكل من المذهب الطبيعي، والمذهب الحيوي.. وقام بهذا النقد ليدلل على صحة نظريته هو، ولكن الباحثين تناولوا نظرية (الطوطم) بنقد لا هوادة فيه ولا رحمة وأتوا على بنيان نظريته من القواعد وتَلَخَص نقدهم في الآتي:-

١ - ليس من المستطاع دائماً أن نستقى معلومات كافية عن الطبيعة الحقيقية لكائن ما من مجرد النظر في أصل تكوينه فإن التغيرات والنظم التي تحدث له في أثناء نموه قد تبرز فيه صفات وخصائص ما كنا نرى فيها أدنى أثر في بدايته. إن الطبيعة الحقيقية لكائن ما إنما تتكون من قانون تطوره منذ نشأته الأولى إلى صورته النهائية[١]

٢ - إن التساؤل الذي يبرز هنا هل نظام القبيلة الذي درس "دوركايم" أحوالهم يمثل دوراً أقدم من نظام الأسرة ؟ هذه دعوى يعوزها الدليل بل هناك أدلة أثرية وتاريخية على عكسها[٢]

ثم هل قبائل استراليا الوسطى تمثل أقدم نظام معروف للقبائل؟ هذه مسألة غير مسلمة، وقد قام بهذا الباحث "شمت" حيث

---

(١) الدين ص ١٥٥

(٢) نفسه ص ١٥٤/١٥٥

أثبت ماقرره الباحثون بما لا يدع مجالاً للشك. إن قبائل استراليا الوسطى لم تكن أقدم جماعة إنسانية إنما هى الطور السادس الذي انتهت إليه العقلية الوطنية لأهل استراليا بل هى أكثرها تقدماً وأحدثها[1] ، والمشكلة أن "دوركايم" قد قصر أبحاثه على (الطوطم) في المنطقة الاسترالية المتوسطة ولم يشر إلى أنواع (الطواطم) في شمال أمريكا إلا نادراً بينما المنهج العلمي كان يوجب عليه أن يقوم بدراسة مقارنة مفصلة (للطوطمية) في جميع صورها لا أن يتوقف عند صورة واحدة (للطوطمية)، وهذا ما فعله "دوركايم" إذ قصر بحثه على منطقة معينة استقى معلوماته عنها من السياح والرحالة. ثم عمم أحكامه على الإنسان البدائي في كل زمان ومكان.

٣- هل البدائيين الذين درس "دوركايم" أحوالهم كان لديهم الشعور بأن ما يقومون به حيال (الطوطم) ورموزه هو تقديس للمجتمع الذي ينتمون إليه؟ مع أن الذي يظهر من بحوث علماء الأثنوجرافيا أن البدائيين لم يكن لديهم شعور بمثل هذه الحقائق السامية وأن العقلية البدائية ما كانت لتستطيع أن تسمو إلى مثل هذه الأفاق في التفكير. من جهة أخرى لا يمكن التسليم بما ذهب إليه "دوركايم" من أن (الطوطمية) تمثل أقدم ديانة إنسانية. إن (الطوطمية) كانت نظاماً دينياً لبعض شعوب بدائية اكتشفت في صدر العصور الحديثة. وهذه الشعوب ظلت بمعزل عن

---

(١) نشأة الدين ص ١٧٤

الحضارات التي ظهرت بين سكان القارات، ولكن هل استمرت تلك الشعوب بمعزل عن تغيير معتقداتها وظلت محافظة على تلك المعتقدات؟ بل إن التسليم بهذا يحتاج إلى دلائل كثيرة تشير إلى عكس ما ذهب إليه "دوركايم"

وعلى فرض أن (الطوطمية) تمثل أقدم ديانة سارت عليها الشعوب البدائية منذ نشأتها فإنه لا يوجد دليل يحمل على اليقين ولا على الظن بأنها كانت الديانة السائدة في فاتحة الإنسانية ولجميع شعوبها على الإطلاق.

وكما يقول الدكتور "عمارة نجيب" كما اتخذت اللوازم والمظاهر الطوطمية دليلاً على عكس هذه الفكرة أي على أن (الطوطمية) لم تكن أصل العقيدة الدينية لأنها نشأت بعد وقت طويل جداً لم يخل من دين وذلك قبل اتساع القبائل ومعرفتها للأنظمة الاجتماعية والقواعد (الطوطمية) [(١)]

ويمكن في نفس الوقت الاستدلال بهذه اللوازم والمظاهر على وجود رجعية فكرية ممثلة في (الطوطمية) سبقها وحي سماوى مسخه عقل الإنسان وعواطفه[(٢)]

٤ – على أن التساؤل الهام هل (الطوطمية) نظام ديني أصلاً ؟ أو هو نظام اجتماعي فحسب؟ إن الاستقراء الدقيق للعشائر

---

(١) الطوطمية للدكتور علي عبد الواحد وافي وانظر الإنسان في ظل الأديان ص ١٢٥

(٢) الإنسان في ظل الأديان ص ١٢٥

الاسترالية لا يثبت إطلاقاً فكرة "دوركايم" لقد اتصلت (الطوطمية) اتصالاً قوياً بحياة العشيرة وبحياة الاتحاد وبحياة القبيلة ثم بحياة الفرد قبل ذلك أو بعد ذلك فالأمر سيان. غير أن الصلة بين عقيدة كل من تلك النظم الاجتماعية أو الأفراد غير واضحة على الإطلاق يسودها الغموض وتكتنفها الشبهات أو بمعنى أدق تكاد معدومة، ومن العجيب أن يأتي "دوركايم" ويجعل منها مصدر الحياة الدينية ومنبعها. بينما ينشر هذا العدد الكبير من الباحثين أبحاثاً في ضوء تجارب وأبحاث في استراليا نفسها ينكرون فيها أية صلة بين الطوطمية والعقيدة الدينية[1]

٥ – لقد اعترف "دوركايم" أن عدداً من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة الإله الأعلى أو "الإله الأوحد" وأنه كائن أزلي أبدي تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره وبالجملة فجميع الأمور ترجع إليه ليس فقط في الحياة وإنما بعد الموت حيث يُمَيِّزُ هذا الإله بين المحسن والمسئ[2]

بعد ظهور هذه الحقائق نرى "دوركايم" يضرب عنها صفحاً وبدلاً من أن يقرر عقيدة التوحيد نراه يدخل في جدال عنيف مع الباحثين الذين ذهبوا إلى أسبقية عقيدة التوحيد وكما يقول الدكتور "دراز" يعترف "دوركايم" بكل هذا. ولكن عند استنباط

(١) الدين ص ١٧٣

(٢) نفسه ص ١٥٦/١٥٧

نظريته في الألوهية يضرب الذكر صفحاً عن هذه الصورة الدينية الحقيقية ثم يعمد إلى ضرب من اللهو الخليع تأتيه بعض القبائل في حفلات تضم كل شئ إلا الدين والعبادة ويترخص فيها بارتكاب أعمال شاذة تنافي قواعد الأخلاق المقررة والمتبعة عندهم بانتظام. يعمد إلى هذه الحفلات الماجنة فيرسم لنا فيها لوحة بارزة يعرضها علينا قائلاً: إذا أردتم معنى الدين فها هنا منبعه ومظهره[1] هنا التحكم والهوى والرغبة لا الحكم الذي يسنده الدليل وتعضده الحجة. لقد رجح أمراً مشكوكاً فيه على أمر مقرر. خاصة أن الذين قدموه من أهل الاختصاص في علم الأنثربولوجيا، و"الإثنولوجيا" بينما "دوركايم" لم يكن من علماء هذين العِلْمَيْنِ إنما أقام أبحاثه على دراسات غيره من الباحثين[2] ولذلك كان النقد إليه عنيفاً من قِبَلِ المختصين وكانت حجتهم مما يصعب الرد عليها من قِبَلِ "دوركايم" ومن ذهب مذهبه.

لعلنا قد أسهبنا بعض الشئ في الرد على "دوركايم" ولكن ذلك مرده إلى أنه الأكثر شهرة من غيره ممن ذهبوا إلى أن الباعث على الدين هو (الطوطم)

٦ – أما فيما يتعلق "بتايلر" و"ويلكن" فإن ماذهبا إليه يقوم على فهم خاطئ للديانة (الطوطمية) لأنهما ظنا أن (الطوطمية)

---

(١) الدين ص ١٥٧

(٢) نشأة الدين ص ١٧١

مظهر من مظاهر عبادة الحيوان والنبات مع أن (الطوطمية) تختلف اختلافاً جوهرياً عن عبادة الحيوان والنبات. لأن أفراد العشيرة لا يقفون حيال طوطمهم كما يقف عابد الحيوان أو النبات حيال معبوده لأن الذي يعبد الحيوان أو النبات يعتبر نفسه شيئاً حقيراً إذا قيس بإلهه على حين أن النظام الطوطمي يجعل الإنسان نفسه من طبيعة طوطمية فالعلاقة بين أفراد العشيرة وفصيلة طوطمها ليست علاقة عُباد بآلهة. بل علاقة أقرباء تربطهم بعضهم ببعض وشيجة الدم ولُحْمَةُ النسب الوثيق، ولو كانت (الطوطمية) متشعبة عن عبادة أرواح الموتى للاعتقاد بحلولها في أجسام بعض الحيوانات أو النباتات كما يذهب "تايلور وويلكن" لما ظهرت في الصورة التي وصفناها بل تظهر في الصورة التي تبادرت إلى ذهنيهما وهى عبادة الكائنات نفسها التي حلت فيها هذه الأرواح وهذا[1] لم يحدث

٧ - أما ما ذهب إليه "جيفوفنس" فإن نظريته تصور (الطوطمي) على أنها ناشئة عن عمل إرادي قصد إليه الأفراد لتحقيق غاية نفعية أو وقائية ولو كان الغرض من (الطوطمية) أن يتقرب إليها الإنسان لعقد الإنسان هذه الصلة بينه وبين أكبر مظاهر الطبيعة قوة وبطشاً وإثارة للرهبة والخوف في نفس الإنسان مع أن الواقع أن معظم هذه (الطوطم) تتألف من نباتات، وحيوانات

(١) الطوطمية للدكتور على عبد الواحد وافي

ضعيفة لا ترهب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الإنسان. وهذا يدل على أن القبيلة والعشيرة اتخذوها رمزاً فحسب ولكن أعطوا لها مفهوم القداسة والتعظيم[1]

(١) الطوطمية للدكتور عبد الواحد وافي وانظر الإنسان في ظل الأديان ص١٧٣ وما بعدها

نقد القول بأن الباعث على التدين هو الحب

إن اختزال الباعث على التدين في كونه شعوراً بالحب ينقص مفهوم الدين ويبسطه إلى حد كبير. مع أن هذا القول جزء من بواعث متعددة وليس هو الباعث الوحيد كما يريد أنصاره له. ثم إن الشعور بالحب معنى جميل، ولكن هل يصل إلى درجة يجعل الإنسان يعتقد في الدين، ويرتبط بالمعبود؟ من الممكن أن تكون حالة الحب تلك دافعة للإنسان إلى الطاعة والعبادة، وذلك بعد اعتقاده في دين من الأديان مثل المسيحية أو الإسلام أما أن تحرك هذه العاطفة الإنسان البدائي إلى التدين فهذا فيه نظر ويحتاج إلى تمحيص.

نقد القول بأن التجارب النفسية هى الباعثة على التدين

إن أصحاب هذه الفكرة بالرغم من إفاضتهم في شرحها وبيان فلسفتها إلا أن هذه الوجهة لا تنطبق على سائر الديانات وهى أجدر بأن تلحق بالفكرة الفلسفية منها بالوجهة الدينية. لأنها بلغت حداً كبيراً من التجريد يبعد أن تكون فكرة عالمية في تفسير الباعث على التدين، ومن ثمَّ تُستبعد هذه الفكرة على الرغم من عمقها وجدتها لتلحق بالفلسفة بعيداً عن الدين[1] لأن مجال الفلسفة أولى بها عن مجال الدين.

---

(١) الدين بتصرف ص ١٣٨

المسألة الرابعة:-

نقض القول بالتطور في خلق الإنسان

بنى دعاة التطور في الدين على مذهب التطور في الكائنات. تلك النظرية التي دعا إليها "ديدرو"(١) و "لامارك"(٢) وأخذت شهرتها على يد "دارون" (٣) ومفاد هذه النظرية أن الكائنات تطور بعضها عن بعض(٤) وقد صبغت هذه النظرية الحياة الأوربية وكان لها تأثير كبير في جميع نواحي الحياة وفسّر بها بعض الباحثين نشأة الدين عند الإنسان يقول أحدهم :إننا إذا قبلنا نظرية تطور الإنسان عن بعض الصور الحيوانية الدنيا فإننا مضطرون إلى أن نبحث عن أصل العواطف والبواعث الدينية في تلك الغرائز التي ليست في أصلها دينية بصورة بحتة(٥).

والتساؤل هنا هل نظرية التطور في الكائنات مُسَلَّمٌ بها؟ إننا بحاجة إلى نقض هذه النظرية أولاً ثم ننطلق إلى نقض نظرية التطور في الدين ثانياً.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٩٠/١٩١، الموسوعة الفلسفية - المختصرة ص ١٣٨

(٢) موسوعة الفلسفة ج٢ ص ٣٤٨ الدكتور عبد الرحمن بدوي

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٥١

(٤) أصل الأنواع ص ١١٩

(٥) في الدين المقارن ص ٢٧

أولاً : نقض نظرية التطور في الكائنات

إنه ما من أساس من الأسس التي قامت عليها نظرية "دارون" إلا وأبطلها الباحثون سواء من ناحية الحفريات[1] أو من ناحية الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح[2]. أو من ناحية علم الأجنة أو علم التشريح. هذه الأسس أضحت الآن حديث المؤتمرات العلمية التي انتهت إلى أن هناك عمليات تزوير واسعة تمت لصالح نظرية التطور على الرغم من عدم صحتها أصلاً[3] وأخيراً ننقل هنا عبارة "آرثركيث" وهو أحد أرباب الدارونية والمنادين بها يقول: (**إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علمياً ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الإيمان بالخلق المباشر وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه**)[4]

إذن فالقضية لم تعد أمر نظرية علمية، ولكن الأمر أصبح أمر إلحاد وكفر بالله، وأنه لا سبيل أمام أرباب النظرية إلا التسليم بها حتى ولو كانت تفقد الأدلة العلمية لأن السبيل الآخر هو الإيمان بالله وهذا لا يخطر لهم على بال، وبعد هذا وغيره نجد أنفسنا مضطرين لعدم قبول النظرية من الناحية المتعلقة بخلق آدم عليه

---

(١) انظر خلق لا تطور ص ١٠٧/١٠٨ وانظر الإسلام يتحدى ص ٣٩

(٢) انظر العلم يدعو إلى الإيمان وتوحيد الخالق ج٣ ص ٨٨/٨٩

(٣) انظر للأهمية خلق لا تطور لمجموعة من العلماء الغربيين ترجمة إحسان حقي - الناشر دار النفائس بيروت

(٤) الإسلام يتحدى ص ٣٩

السلام. مثل قوله تعالى (**وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**) [1] وقوله تعالى (**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين**) [2] وهذه الآيات وغيرها مثل قوله تعالى (**ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون**) [3]

تفيد الآتي:-

أولاً : إن آدم خلق بيد الله ولم يتطور عن شئ آخر. ومن نسله جاء الإنسان مستوياً في خلقته مستعداً لقبول هُدَيَّ الله.

ثانياً : أن آدم خُلق وهو في أعلى مراحل النضج البشري لا كما يزعم التطوريون بأن الإنسان البدائي كان في أدنى مراحل المعرفة وكان متوحشاً وظل يتعلم من الحيوان إلى أن صار إلى ما هو عليه الآن.

ثالثاً : أن الله خلق من كل شئ زوجين وهى إشارة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض بل في الكون كله وحين تدلنا الآية على هذه الحقيقة نجدنا أمام أمر عجيب عظيم. نطلع من خلاله على الحقائق الكونية في هذه الصورة المبكرة كل التبكير [4]

---

(١) سورة الحجر الآية ٢٨/٢٩

(٢) سورة البقرة الآية ٣١

(٣) سورة الذاريات الآية ٤٩

(٤) في ظلال القرآن ج٦ ص ٣٣٨٥

بعد هذا كله نرى أن القول بعدم تعارض نظرية[1] التطورمع حقائق القرآن فيه تجاوز ليس هناك أي مبرر لقبوله مادامت أن الأدلة القرآنية تدحضها وأيضاً الأدلة العلمية. ونختم بقوله تعالى ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا**﴾[2]

---

(١) انظر مقال الدكتور علم الدين كمال – تطور الكائنات الحية ص ٤٩. مجلة عالم الفكر المجلد الثالث العدد الرابع ١٩٧٣م –الكويت.

(٢) سورة الكهف الآية ٥١

المسألة الخامسة:-

نقض القول بالتطور في العقيدة

نسجل في البداية أن دراسة الإنسان البدائي هي دراسة تقوم على الظن لا على اليقين... وهذه الدراسة تقوم على خطأ مزدوج من ناحية الغاية والوسيلة لأن هذه المنطقة البدائية المحضة قد اعتبرها العلم شقة حراماً حظرها على نفسه وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود عمله فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف، و تَستّرٌ بثوب مستعار. لأن مؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلاً تاماً فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب[1]

إن ما نعرفه عن التاريخ الإنساني قبل خمسة آلاف سنة قليل أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف سنة فيُعد أقل من القليل[2]، وما قبل ذلك يعتبر مجاهيل لا يدري التاريخ عنها شيئاً فما هي معرفة العلماء بمليونيين ونصف مليون عام؟ لقد اكتشف في جبل حجري بصحراء تقع شرق بحيرة "رودلف" في كينيا بقايا جمجمة وساق يرجع تاريخها إلى مليونين ونصف مليون عام ولذلك تعتبر هذه

---

(١) الدين ص ١٠٨

(٢) العقيدة في الله ص ٢٤٥

البقايا أقدم أثر للإنسان الأول[1] إن المعلومات التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير بل ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف. إن كتابة تاريخ شخص فضلاً عن جماعة في العصر الحديث أمرٌ في غاية الصعوبة فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية[2] ولذلك جانب الصواب الذين درسوا العقائد البدائية عند جماعة من البشر ثم عمموا أحكامهم على الجنس البشري بأكمله. ونستطيع أن نُجمِل أهم الانتقادات الموجهة إلى القول بالتطور في الدين في الآتي:-

أولاً : إن الاستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية خطأ في الاستدلال. لأنه مبني على أن تلك الأمم تمر بأدوار متقلبة، وهذا الافتراض لم يقم عليه دليل. بل الذي أثبته التاريخ واتفق عليه المنقبون عن آثار القرون الماضية أن فترات الركود والتقهقر التي سبقت مدنياتها الحاضرة كانت مسبوقة بمدنيات مزدهرة وبالتالي فلا تصلح الأنماط الدينية المنحطة أو الهمجية للاستدلال على نقطة البدء في التدين لأنها تمثل انتكاسات في تاريخ البشرية[3] وكما يقول "هوفندج" "Hoffding" "إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل

---

(١) انظر مجلة عالم الفكر العدد الرابع المجلد الثالث ص ٩٧٢

(٢) العقيدة في الله ص ٢٤٥

(٣) انظر الدين للدكتور دراز ص ١٠٩ وانظر في الدين المقارن ص٤٣

مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلاً أو كثيراً حتى إن أخطر القبائل الهمجية التي نعرفها قد مرت بأدوار شتى وتطورت تطوراً بعيداً"[1]

ثانياً: إن القول بأن قوى النفس تسير في نموها على قدم المساواة مع تقدم القوى المادية في الحياة. قول ينقصه الدليل وتعوزه الحجة والأقرب إلى الصواب أن الحياة البسيطة التي كان يعيشها الإنسان البدائي كانت تدفعه إلى التأمل الديني، وتنمي مشاعره. بينما اشتغال الناس بترف الحياة الجسدية في العصور الحضارية، هذا الترف يؤدي إلى فتور الناحية الروحية لأن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص بقدر ماتنمو وتقوى أضدادها ككفتى الميزان لا ترفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى[2]

ثالثاً: إن قياس تطور الدين على تطور الفنون والصناعات حجة على الذين يقولون بالتطور لا لهم. لأن معنى التطور في الفنون والصناعات هى أنها تبدأ في صورة بسيطة ساذجة ثم تنتقل تدريجياً إلى نوع من التكثر والتركيب تزداد به تعقيداً كلما بعدت عن أصلها وواضح أن تطبيق هذا القانون التطوري بمعناه العلمي

---

(١) نقلاً عن الدين ص ١٠٩ وانظر الوحدانية ص ٨٠ للدكتور بركات دويدار مطبعة السعادة

(٢) الدين ص ١١٠

الحيوي على العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت أيضاً من الوحدة إلى الكثرة، ومن النقاوة والسهولة واليسر إلى التعقد بالإضافة إلى الأسطورية والنزوات الخيالية التي لا ضابط لها من العقل السليم[1] ثم لوكان قياس تطور الدين على التطور في العلوم والصناعات لوجدنا أن إنسان القرن العشرين قد وصل إلى درجة عالية من الاعتقاد والتطور الصحيح للألوهية ولكن هل حدث ذلك ؟ الواقع يشهد بعكس ذلك. لقد اتخذ إنسان القرن العشرين أصناماً عبدها من دون الله مثل التقدم، والفردية، وتمجيد الأمة وأصنام القوة المسلحة وغيرها من طوطم ورموز مقدسة، وطقوس واحتفالات[2] ثم هل اندثرت معبودات الإنسان البدائي بعد النقلة الحضارية الضخمة؟ إنه وبناءً على التطور يجب أن تتلاشى الوثنيات القديمة ولكن ها هي الوثنية البغيضة تطل علينا في آسيا وإفريقيا وأمريكا[3]. هل أتى نبأ الهند وتفجيراتها النووية. للذين يقولون بالتطور من الأدنى للأعلى في التدين؟ ما بال الكثرة من سكان الهند يعبدون البقرة ويقدسون كثيراً من مظاهر الطبيعة في القرن العشرين ويموت أكثرهم جوعاً ولا يذبحون بعض الحيوانات.ثم ما شأن روسيا والصين والملحدون في أوربا بعد التقدم العلمي المذهل؟ إنهم مع ماذُكِرَ مازال الكثير

---

(١) نفسه ص ١١١

(٢) انظر ما يعد به الإسلام ص ٢٦٧ روجيه جارودي ، وانظر معركة التقاليد ص ٨٢/٨١

(٣) انظر الإسلام والأديان ص ٣٣

منهم لا يؤمنون بالله ولا يعترفون بالخالق[1]. بعد هذا كُله يصر البعض على القول بالتطور في الديانات من الكثرة إلى الوحدة.

رابعاً: إن هناك حضارات ازدهرت في أمم وأماكن معينة في الماضي على حين أننا نجد هذه الأمم وهذه الأماكن الآن تمثل نموذجاً في التدهور والتأخر فهل يصح القول بأن حالة التدهور والتأخر تمثل نقطة البدء لهذه الأمم أو تلك الأماكن؟[2] بالضرورة لا. ومن ثمَّ فقد بطل القول بتطور العقيدة من التعدد والوثنية إلى التوحيد.

إن الحديث عن التطور في العقيدة بضاعة أوربية استنفدت أغراضها أو انتهت صلاحيتها. ويجب علينا أن نفهم ونقرر ونعلن أن الدين حقيقة علوية قائمة بذاتها. ظل الإنسان ينهل منها بحسب طاقته واستعداده حتى وصل على يد الرسل إلى أوضح فهم لها في عقيدة التوحيد. [3] الذي لم يكن هو نهاية الأطوار بل هو البدء والمختتم[4] وهوالكلمة الأولى على لسان الأنبياء والكلمة الأخيرة لمحمد ﷺ وأتباعه إلى قيام الساعة.

خامساً: إن القائلين بالتطور في الديانات لو قصروها على الديانات الوضعية لكان لهم وجه أما أن يعمموا أحكامهم على الديانات

---

(١) مقارنة الأديان ص ٣٩/٤٠

(٢) في الدين المقارن ص ٤٣

(٣) في النفس والمجتمع ص ١٦ - محمد قطب دار الشروق

(٤) الأديان في القرآن ص ٣٢ الدكتور محمود بن الشريف الطبعة الثالثة دار المعارف ١٩٦٣م

الوضعية وغيرها فهذا لا يجوز ولا يتأتى. على أن نزعة التوحيد في الديانات الوضعية ليس مردها إلى الإنسان وتفكيره ولكن مردها إلى بقايا الوحي الذي أنزله الله مع الرسل إلى الأمم مصداقاً لقوله تعالى ﴿**إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير**﴾ [1]

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤

المسألة السادسة:-

مناقشة العقاد في قوله بالتطور في العقيدة استناداً على قصة إبراهيم عليه السلام

تابع الأستاذ العقاد الاتجاه القائل بأن الإنسان تطور في التدين من التعدد إلى الوحدة وينبغي هنا أن نقرر أن متابعة العقاد لم يكن لهم على طول الخط. لأنهم حين قالوا بأن الإنسان مصدر الدين وذكروا البواعث عليه. لم يقولوا بأنه انتهى إلى التوحيد الذي جاء به الرسل. لأن غالبيتهم لا يؤمنون بالله أصلاً. أما الأستاذ العقاد فإنه تابعهم في القول بأن بداية الدين التعدد. ثم توصل الإنسان إلى التوحيد الذي جاء به الرسل. واستدل بقصة إبراهيم عليه السلام الواردة في قوله تعالى ﴿ **فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلم رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قالت يا قوم إني برئ مما تشركون إني وجهت وجهى للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين** ﴾ [1] كانت هذه الآيات هى التي استدل بها العقاد على التطور في العقيدة.

---

(١) سورة الأنعام الآية ٧٦-٧٨

يقول فريانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليقة والحياة فإذا دخلت هى أيضاً في عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله في حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار، وينطبق هذا الترتيب تمام الإنطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن ﴿ **فلما جن عليه الليل**﴾ (١)

والسؤال الآن هل فعلاً هذه الآيات تدل على التطور في العقيدة والانتقال من الوثنية إلى التوحيد كما ذهب العقاد ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تكمن في استعراض ما قاله العلماء في تفسير هذه الآيات

يقول الزمخشري عن إبراهيم عليه السلام "كان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها لا يصح أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها صانعاً صنعها ومدبراً دبر طلوعها أما قوله ﴿**هذا ربي**﴾ فهذا قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكي قوله غير متعصب لمذهبه لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ثم يكر عليه بعد حكايته

---

(١) الله - كتاب في نشأة العقيدة الإلهية ص ٣٦/٣٧ - دار المعارف ١٩٦٣م



فيبطله بالحجة"[1] ﴿ **إني وجهت وجهي للذي فطر السموات**﴾ أي للذي دلت هذه المحدثات عليه وأنه مبتدؤها ومبتدعها. ثم يتساءل الزمخشري بقوله "فإن قلت لمَ احتج بالأفول دون البزوغ وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟ قلت الاحتجاج بالأفول أظهر لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب" [2]

ويعلق ابن المنير السكندري على عبارة الزمخشري بقوله "وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسانه" [3]

أما الفخر الرازي فيقرر أن إبراهيم ما كان شاكاً وإنما أراد أن يثبت لقومه أن الإله واحد وأن ما يعبدونه من دونه ليس لهم عليه حجة ويحشد الرازي الأدلة لإثبات أن إبراهيم كان يدعو قومه بعد أن دعا أباه إلى التوحيد وأن هذه الواقعة حدثت بعد أن أراه الله ملكوت السموات والأرض ثم يقول "ومن كان منصبه في الدين كذلك وعلمه بالله كذلك فكيف يليق أن يعتقد بإلهية الكواكب" [4].

وحجة أخرى يسوقها "الرازي" وهى أن هذه الواقعة إنما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه والدليل عليه أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال سبحانه ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه**﴾ ولم يقل على نفسه. ثم يقول "فلنعلم أن هذه

---

(١) الكشاف ج٣ ص ٣١ وانظر الألوسي ج٧/٨ ص ١٩٨/١٩٩

(٢) الكشاف ج٢ ص ٣٢

(٣) هامش الكشاف ج٢ ص ٣٢

(٤) التفسير الكبير للرازي ج ١٣ /١٤ ص ٤٧-٤٨

المباحثة إنما جرت مع قومه لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفة لنفسه" [١]

أما تخريج قوله ﴿ هذا ربي ﴾ فيذكر "الرازي" أن هذا ليس على سبيل الإخبار وإنما على سبيل المناظرة. كمن يعبرعن شبهة الخصم بلفظها حتى يرجع إليه فيبطلها أو يقال إن المراد منه الاستفهام على سبيل الإنكار إلا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناءً عنه لدلالة الكلام عليه أو ذكره على سبيل الاستهزاء كما يُقال لذليل ساد قوماً هذا سيدكم على سبيل الاستهزاء [٢] وكلها محاولات عقلية تؤيد الأدلة النقلية التي تدل على توحيد إبراهيم أولاً لله ثم مجادلته لقومه.

أما "الشهرستاني" فقد أبدع في استنباط دلائل التوحيد من هذه الآيات على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام. يقول الشهرستاني "بعد إيراد قوله تعالى ﴿ **فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين** ﴾[٣] فيا عجباً ممن لا يعرف رباً كيف يقول ﴿**لئن لم يهدني ربي لأكونن**

---

(١) نفسه

(٢) نفسه ج ١٣/١٤ ص ٤٩/٥٠

(٣) سورة الأنعام الآية ٧٧

من القوم الضالين﴾ رؤية الهداية من الرب تعالى غاية التوحيد ونهاية المعرفة، والواصل إلى الغاية والنهاية كيف يكون في مدارج الهداية" [1]

ويُخَرِّجُ قوله ﴿ **فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر﴾**[2] بقوله "إن الموافقة في العبارة على طريق الإلزام على الخصم من أبلغ الحجج وأوضح المناهج" [3] ويَعُدُ هذا شاف كاف[4] ويبين ما اشتملت عليه هذه الآيات وما قام به إبراهيم عليه السلام من بيان الحجة لقومه وإلزامهم إياها فيذكر أنه أي إبراهيم "قرر مذهب الحنفاء وأبطل مذاهب الصابئة، وبين أن الفطرة هى الحنيفية، وأن الطهارة فيها، وأن الشهادة بالتوحيد مقصورة عليها وأن النجاة والخلاص متعلقة بها. وأن الشرائع والأحكام مشارع ومناهج إليها، وأن الأنبياء والرسل مبعوثون لتقريرها وتقديرها، وأن الفاتحة والخاتمة والمبدأ والكمال منوطة بتحصيلها وتحريرها﴿**ذلك الدين القيم﴾** والصراط المستقيم والمنهج الواضح والمسلك اللائح قال تعالى لنبيه المصطفى ﷺ ﴿**فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه**

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني ص ٣٠٧

(٢) سورة الأنعام الآية ٧٨

(٣) الملل والنحل ص ٣٠٧ ومنهج الشهرستاني ص٥٧١

(٤) نفسه

وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾(1) ياله من شفافية مطلقة كشف عنها الشهرستاني بأوضح عبارة وأجملها وأوجزها وزيّن كلامه وطلى حجته باستدلاله الموفق بقول الله تعالى **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً﴾** فهذا القول هو الفصل والحكم الذي لا معقب له.

وقد سار على هذا النهج ابن كثيررحمه الله. إذ يقرر أن إبراهيم عليه السلام في هذا المقام كان مناظراً لقومه مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه ثم يتساءل كيف يكون إبراهيم ناظراً في هذا المقام وهو الذي قال الله في حقه **﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾**(2) وقال**﴿ إن إبراهيم كان أمة﴾** (3) وقال **﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾**(4)

إن إبراهيم أولى الناس بالفطرة السليمة والسجية المستقيمة بعد رسول الله ﷺ بلا شك ولا ريب، ومما يؤيد هذا أنه كان مناظراً لقومه،قوله تعالى **﴿ وحاجه قومه﴾**(5)

---

(1) سورة الروم الآية ٣٠ - ٣٢ وانظر الملل والنحل ص ٢٠٧ - ٣٠٨

(2) سورة الأنبياء الآية ٥١

(3) سورة النحل الآية ١٢٠

(4) سورة البقرة الآية ١٣٥

(5) سورة الأنعام الآية ٨٠ وانظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٥١ -١٥٢ وانظر مختصر تفسير البغوي ج١ ص ٢٥٩

وقد أنكر الطبري على من خرّج هذه المناظرة وأنها كانت إقامة الحجة على قوم إبراهيم منه وانتصر لما روى عن ابن عباس وعمن روى عنه من أن إبراهيم قال للكوكب هذا ربي، وبعد أن عدد ما استدل به الذين أجروا الآية على ظاهرها قال "وفي خبر الله تعالى عن قول إبراهيم حين أفل القمر ﴿ **لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين**﴾ الدليل على خطأ هذه الأقوال (الذين صرفوها عن ظاهرها) وأن الصواب من القول في ذلك في الإقرار بخبر الله تعالى الذي أخبر عنه والإعراض عما سواه" [1] والذي دعا الطبري (عليه رحمة الله) إلى هذا القول ما روي من أثار عن ابن عباس، وقوله ﴿ **لئن لم يهدني** ﴾ ولكن الرازي (رحمه الله) قال "لا يمكن حمل لفظ الهداية على التمكين وإزالة الأعذار ونصب الدلائل لأن كل ذلك حاصلاً. فالهداية التي يطلبها بعد حصول هذه الأشياء لا بد وأن تكون زائدة عليه" [2] ويكون معنى لئن لم يهدني ربي "لئن لم يثبتني ربي على الهدى. ليس لأنه لم يكن مهتدياً. لأن الأنبياء لم يزالوا يسألون الله تعالى الثبات على الإيمان" [3]

وأخيراً بعد عرض هذا الحشد من الأدلة يتضح تماماً أن إبراهيم لم يكن شاكاً ولا معتقداً في النجوم أولاً ثم في القمر ثانياً ثم

---

(١) تفسير الطبري ج١١ ص ٤٨٣/٤٨٤/٤٨٥ تحقيق أحمد شاكر ومحمود شاكر - طبعة دار المعارف

(٢) التفسير الكبير للرازي ج١٣/١٤ ص ٥٦

(٣) مختصر تفسير البغوي ج١ ص ٢٥٩/٢٦٠

في الشمس قبل أن يصل إلى التوحيد ولا أدري كيف غابت هذه المعاني كلها عن الأستاذ العقاد (غفر الله له) وهو صاحب العقلية الكبيرة في الدفاع العقلي عن الإسلام؟ اللهم إلا متابعته للغربيين في هذا الشأن، وخطورة متابعة الغربيين في القول بالتطور حتى وإن انتهوا إلى القول بالإله الواحد. أننا ما دمنا قد سمحنا لأنفسنا بقبول التطور في الدين فما المانع أن يأتي وقت تتطور فيه فكرة الإله ذاته. إلى فكرة غيره قد لا تمت إلى الدين بصلة.

يصور ذلك الأستاذ محمد قطب بقوله " إذا كانت الحياة تتطور من الخلية الواحدة إلى الإنسان المعقد الشديد التعقيد فماذا يمكن أن يكون ثابتاً على وجه الأرض؟ إن فكرة "الإله" تطور في تفكير البشرية إنها ليست فكرة أزلية ثابتة كما يصورها الدين. لقد تطورت من قبل ويمكن اليوم أن تتطور. كانت عبادة للوالد وعبادة للطوطم، وعبادة لقوى الطبيعة المختلفة ثم صارت عبادة لله، ولكنها يمكن أن تتطور. يمكن أن تكون عبادة لأي شئ آخر"(١) وهذا ما حدث بالفعل وينادي بها الآن البعض باسم العلم والتقدم، والتطور يقول "جوليان هكسلي" :لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا وهى لا تستطيع الآن أن تقبل أية تطورات. لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية ثم العقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة(الإله الواحد)

(١) التطور والثبات ص ٢١ محمد قطب دار الشروق

وقد وصل هذا الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءاً مفيداً من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور" [1] إن التعبير هنا عن الإنسان الذي اخترع الدين بداية من السحر ونهاية إلى فكرة الإله الواحد. ولكن ما دام الأمر خاضع للتطور. فإن فكرة الإله الواحد التي اخترعها الإنسان لم تعد مناسبة للمرحلة التي وصل إليها العلم والإنسان ومن ثمَّ فإن الفائدة تكمن في تجاوز هذه الفكرة وتلك المرحلة والبحث عن شئ اخر يسد الفراغ إلى حين. ثم يُتجاوز إلى شئ آخر وهكذا دواليك. هذا هو تصور الغربيين للتطور الذي تأثر به ماركس في قوله "إن إزالة الدين بوصفه السعادة الوهمية للشعب هى الشرط الوحيد لتحقيق سعادته الحقيقة" [2] وعبر عنه إنجلز بقوله "تكمن أصول الديانة في النظريات المحدودة الجاهلة التي تنشأ في حالة الهمجية" [3]

وكما يقول أستاذنا الدكتور يحي هاشم "إن تطبيق فكرة التطور على الدين تؤدي منطقياً إلى ما ذهب إليه "فويرباخ" من الاعتراف بالدين على أنه من وضع الإنسان والقول بأن فكرة "الله"

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٨ - ٣٩

(٢) موسوعة الفلسفة ج٢ ص ٤٢٠

(٣) أصول الفلسفة الماركسية ج٢ ص ٢٤٢

نفسها ليست سوى مثل أعلى متغير وضعه الناس لأنفسهم سداً لحاجات ما يسميه "التجربة الدينية" [1] وفكرة التطور تلك -يواصل أستاذنا- تؤدي بالضرورة إلى تكذيب النصوص الدينية التي تقرر سمو التصور الديني عند سيدنا آدم عليه السلام، وتقرر استحالة قبول تعدد الآلهة في أي عصر من عصور النبوة كما تقرر وحدة الدين عند الله ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ وقد تنطبق هذه النظرية أولا تنطبق على الأديان الوضعية.أما الدين الذي هدى الله إليه الإنسان منذ آدم عليه السلام فلا يقبل هذه النظرية على أي حال من الأحوال وإنه لمن العبث في تقديرنا، وفي تقدير كل منصف أن تُتخذ هذه النظرية المتهافتة أساساً تُفسر في ضوئه الحقائق الدينية الإلهية مهما تكن صعوبات هذا التفسير أو استحالته في كثير من النقاط الرئيسة وإن كان من الجائز أن تتخذ أساساً لتفسير الديانات الوضعية ولله دُر ما قاله وقاله غيره من الذين يضعون الأمور في نصابها الصحيح مهما كانت الأصوات العالية التي تنادي بغير ذلك[2]

---

(١) تكوين العقل الحديث ج٢ ص ١١٩

(٢) الإسلام والاتجاهات العلمية ص ٧٢ - ٧٣

الفصل الثالث

مصدر الدين وبواعث التدين عند جمهور المسلمين

ويشتمل على المسائل التالية : -

المبحث الأول : القرآن الكريم ومصدر الدين

المبحث الثاني : البواعث على التدين عند المسلمين

ويشتمل على المسائل التالية:-

المسألى الأولى : الفطرة والميثاق

المسألة الثانية : استمرار الناس على التوحيد من آدم إلى نوح عليهما السلام

المسألة الثالثة : إرسال الرسل إلى جميع الأمم

المبحث الأول :

القرآن الكريم وحديثه عن مصدر الدين

تمهيد:-

ذكرنا أن هناك اتجاهين رئيسيين في مصدر الدين والباعث عليه. وقد عرضنا الاتجاه القائل بأن الدين مصدره الإنسان وهناك اتجاه آخر يذهب إلى أن الدين مصدره الله وهذا الاتجاه يقرر أن العقيدة الدينية لم يسر إليها الإنسان بل سارت هى إليه وأنه لم يصعد إليها بل نزلت عليه وأن الناس لم يعرفوا ربهم بحجة العقل بل بنور الوحي(١)

وهذا قول جمهور أهل السنة والجماعة ونفرٌ من الباحثين الغربيين انتهوا بعد دراساتهم إلى أن عقيدة الخالق الأكبر هى أقدم ديانة ظهرت في البشر وأن الوثنيات إنْ هى إلا عَرَضٌ طارئ ومرض متطفل بجانب هذه العقيدة العالمية ومن أبرز الباحثين الغربيين في هذا الاتجاه "شلنج" الذي ذهب في كتابه "فلسفة الميتولوجيا" إلىأن فكرة عن التوحيد غامضة وغير واضحة كانت تسود الإنسانية الأولى"(٢)

وكان منهم "لانج" "Andrelang" الذي كان ظهور مذهبه مؤذنا بعهد جديد في تاريخ الأديان والأجناس فقد بشر بقوة بأن أقدم

---

(١) الدين ص ١٦٤

(٢) نشأة الدين ص ١٧٩

ديانة في الوجود هى ديانة إله السماء وعنها تشعبت الأديان. وقد أثارت آراء لانج دهشة كبرى في الأوساط العلمية السائدة في ذلك الحين. وهاجمها كثير من علماء أوربا في ذلك الوقت[1] كما يقرر الدكتور النشار.

ومنهم "ويليم شميد" الذي درس أحوال القبائل ومعتقداتها فرأى أن عقائد هذه القبائل الوثنية ترجع بعد تحليلها وتشريحها إلى عقيدة الإله الواحد"[2]

ولكن يجب أن نحتاط في عرض آراء الغربيين الذين يذهبون إلى القول بأن الإنسان بدأ موحداً. ثم انتكس إلى التعدد والوثنية وهذا التحفظ مرده إلى أمرين:

الأول : أن التوحيد الذي يقولون به لا ينسبونه إلى السماء عن طريق الأنبياء. وإنما يدرسون القبائل وعاداتها وتقاليدها فهو توحيد مختلط بالوثنية.

الثاني: أنهم يدرسون هذا الدين. في دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة. وهذه الدراسة لا يملكون وسائلها.

يقول العلامة الدكتور دراز وهو بصدد التعليق على القائلين بالتطور والقائلين بالفطرة يقول رحمة الله عليه "غير أنه مهما تتفاوت النتائج في نظر المذهبين "التطوري والفطري" فإنهما

---

(١) نفسه ص ١٨١، ١٨٤، ١٩١

(٢) المفصل في تاريخ العرب ج٦ ص ٣٦ وما بعدها الدكتور جواد على.

متفقان على موضوع البحث وهو تحديد صورة العقيدة "البدائية" الحقيقية وعلى منهاجه وهو دراسة الشعوب المتأخرة والأمم الغابرة ونحن نرى أن وضع المسألة على هذا الوجه ومحاولة حلها من هذا الطريق ينطوي على خطأ مزدوج في الغاية وخطأ في الوسيلة"[1]

وبعد أن يدلل على خطأ الفريقين يقرر أن الغرض الذي بنيت عليه البحوث الحديثة كلها أسست على جرف هار لا تطمئن عليه الأقدام [2]. ومعه الحق فيما ذهب إليه.

ولذلك فنحن إنما نذكر هذه الأقوال للغربيين على سبيل الاستئناس فقط ويبقى عندنا المصدر الحق الذي نستقي منه الحديث عن مصدر الدين والباعث عليه وحقيقة المعبود الذي توجه إليه الإنسان قديماً. على امتداد التاريخ وكيف ظهر الانحراف. كل هذه الأمور تحدث عنها الإسلام.

---

(١) الدين ص ١٠٨

(٢) نفسه ١٠٩

حديث القرآن الكريم والسنة عن مصدر الدين

إن تاريخ العقيدة الدينية قسم منه لم يقع على الأرض بل حدث في السماء ولذا فإن الرأي الصواب هو أن نتلمس حقيقة الدين ومصدره من الخالق سبحانه وتعالى الذي فصّل لنا حالة الإنسان الأول وتدينه. يقول سبحانه وتعالى **﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾**[1]

ويقول سبحانه **﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين. فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**[2]

---

(١) سورة البقرة الآية ٣٠

(٢) سورة البقرة الآية ٣٤،٣٥،٣٦،٣٧،٣٨

هذه الآيات تقرر الآتي:-

أولاً: أن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يخلق آدم قضى أن يكون خليفة في الأرض يخلف الله فيها بمنهج الحق والتوحيد.

ثانياً: أن الله عز وجل خلق آدم وهو في قمة النضج العقلي والمعرفي بدليل أن الله علمه الأسماء أي اسم كل شئ كما يقول ابن عباس(١). وهذه الأسماء لم يعرفها الملائكة وعرفها آدم وأنبأ الملائكة بها..

ثالثاً: أنه منذ خلق آدم وحواء وهناك أمر ونهي تمثل في إباحة الجنة له بما فيها من الطيبات باستثناء شجرة مخصوصة. لا يعلمها إلا الله.وحذرهما من الشيطان الذي أظهر العداوة المبكرة لآدم عليه السلام حين امتنع عن السجود له مع بقية الملائكة امتثالاً لأمر الله.

رابعاً: أن الله أهبط آدم من الجنة بعد أن نسى ما عهد به الله إليه، وعده الله بأن يُنزِلَ عليه وعلى ذريته هداه كي يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه ووعد المهتدين بالسعادة في الدنيا والفوز في الآخرة أما المكذبين المعرضين فأوعدهم النار خالدين فيها.

خامساً: تدلنا هذه الآيات وغيرها أن مصدر الدين هو الله وأن الإنسان الأول نزل بالوحي والهداية والتوحيد وأن الباعث له

---

(١) مختصر تفسير البغوي ج١ ص ١٩



على التدين هو الفطرة التي أودعها الله فيه، وجعلـه مستعداً لقبـول الهدى والخير[1].

---

(١) انظر العقيدة في الله ص ٢٤٥،٢٤٦ وانظر الإسلام والأديان ص ٢٤ وانظر دعوة التوحيد ٧٩ - ٩٢ وانظر ظلال القرآن ج١ ص ٥١ - ٥٥

المبحث الثاني

البواعث على التدين عند جمهور المسلمين

آدم وذريته الأولون كانوا على التوحيد

سبق وأوضحنا أن الله أنزل آدم. ومعه الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى ومن يُعرض عنه فإن له معيشة ضنكاً، وحديثنا هنا عن ذرية آدم المتقدمين. هل عبدوا الإله الواحد أو بدأوا وثنيين؟

جمهور أهل السنة على أن آدم وذريته كانوا على التوحيد ليس فقط في حياة آدم وإنما استمروا على التوحيد فترة طويلة تقدر بعشرة قرون. واستدلوا على هذا الرأي بعدة حقائق نعرضها في المسائل التالية:-

المسألة الأولى :

فطرة الله التي خلق الناس عليها والميثاق الذي أخذه عليهم.

يقول تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[1]

وقد اتفق جمهور المفسرين على أن المراد بالفطرة الإسلام والتوحيد الخالص له سبحانه يقول الطبري﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾ صبغة الله التي خلق الناس عليها قال أهل التأويل عن ابن وهب عن ابن زيد في قوله ﴿**فطرة الله**﴾ قال الإسلام منذ خلقهم الله من آدم جميعاً يقرون بذلك وقرأ ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**﴾[2]

ويقول ابن كثير عند تفسيره لآية ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها**﴾ إنه تعالى فطر خلقه على توحيده ومعرفته وأن لا إله غيره[3]

ويؤيد ما ذهب إليه المفسرون ما رواه البخاري بسنده عن

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢

(٣) تفسير الطبري المجلد العاشر ص ٢٦ / ٢٧ دار المعرفة وانظر الرازي ج٢٥/٢٦ ص ١٢٠

أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة هل ترى فيها من جدعاء؟" [1]

يقول ابن حجر "وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام. قال ابن عبد البر وهو المعروف عند عامة السلف، وينقل عن القرطبي في المُفْهِمْ ما يؤيد أن المراد بالفطرة الإسلام والدين الحق[2].

ويؤيده ما رواه مسلم بسنده عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا. كل مال نحلتُه عبداً حلال. وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً"[3] وهذا الحديث أصل عظيم في الدلالة على أن الناس كلهم منذ آدم عليه السلام كانوا على الحنيفية أي الإسلام وقيل كانوا مستقيمين منيبيين لقبول الهداية أما قوله (وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل كذا فسره الهروي

---

(١) فتح الباري ج٣ ص ٣٩٣

(٢) نفسه ج ٣ ص ٣٩٣ /٣٩٤

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج١٦/١٧ ص ١٩٧ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار

في رواية فاختالتهم أي يحبسونهم عن دينهم ويصدونهم عنه)[١]

ومن الآيات التي يُستدل بها على أن الناس كانوا على التوحيد وأنهم فُطِرُوا عليه قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين**﴾ [٢]

يقول ابن كثير "إن المراد بهذا الإشهاد هو إنما فطرهم على التوحيد كما في حديث أبي هريرة ما من مولود إلا ويولد على الفطرة. ولهذا قال من بني آدم ولم يقل من آدم، وقال من ظهورهم ولم يقل من ظهره. والمراد أن الله جعل نسلهم جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، ودل على أنهم فطروا على التوحيد ولهذا قال أن تقولوا أي لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا" أي التوحيد غافلين[٣]

ويذكر "القاسمي" أن الله في هذه الآية أخبر أنه فطر الخلق كلهم على معرفته بفطرة التوحيد حتى من خُلق مجنوناً مطبقاً لا يفهم شيئاً ما يحلف إلا به ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس فطرة بالغة[٤]

وعلى نفس النهج سار صاحب المنار حيث ذكر عشرة

---

(١) نفسه

(٢) سورة الأعراف الآية ١٧٢-١٧٣

(٣) تفسير ابن كثير ج٢ ص ٢٦٣/٢٦٤ وانظر مختصر تفسير البغوي ج١ ص ٣٢٢/٣٢٣

(٤) محاسن التأويل للقاسمي ج٥ ص ٢٩٧/٢٩٨ دار الفكر

وجوه للدلالة على أن هذا الإشهاد بالفطرة والرسل لا وجه بعده في إقامة الحجة على من أشرك[1]

إن دلاله الفطرة على وجود اللهووحدانيته تحل لنا كثيراً من الأمور التي نبحث لها عن حل سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة

أولاً: على مستوى الفرد

إن أي إنسان ملحد بالتأمل في حياته نجد أنه يتمرد على الاعتقاد في وحدانية الله طالما أنه غارق في نعيمه سبحانه يقول سبحانه ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى**﴾ أي ليتجاوز حده ويستكبر على ربه أن رأى نفسه غنياً قال الكلبي : يرتفع عن منزلة إلى منزلة في اللباس والطعام وغيرهما[2]

يظل هكذا معرضاً حتى إذا أدركته نعمة الله وبلائه ليصحو من غفلته بنقمة قارعة تتبدد بها وسائل الاستغناء عن الله كأن يتعرض لحريق عاصف أو غرق يائس فإن الحوائل التي كانت تحول بينه وبين فطرته تسقط تلقائياً، ويجد نفسه وجهاً لوجه أمام حقيقة الاعتراف بوجود اللهووحدانيته[3]. لأن الدافع الفطري أو الإحساس بأن الله هو المنقذ عميق وقوي ومسيطر على النفس

---

(١) انظر تفسير المنار ج ٩ ص ٤٠٠ - ٤٠١ دار المعرفة للطباعة والنشر.

(٢) انظر مختصر تفسير البغوي ج ٢ ص ١٠٢٥ والآية من سورة العلق الآية ٦

(٣) انظر مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ١٠٢٥

البشرية، ويظهر هذا الشعور حين يمس الإنسان أدنى بلاء[1]

ثانياً : على مستوى الجماعة والشعوب

فإن المتأمل في أحوالهما في جميع مستوياتها وأطوارها الاجتماعية يجد أنها تعتنق عقيدة في الله مما يدل على أن ذلك أمر مفطور عليه البشر وإن الانحراف الذي تتعرض له الشعوب إنما هو نوع من تشويه الفطرة يقودها إلى الشرك بالله لا إلى إنكار وجوده أو هو من الكبت يقودها إليه طائفة من الحكام يريدون لها أن تهبط من عبودية الله إلى عبودية البشر[2].

ولكن تظل مع ذلك كله الفطرة كقوة غلابة لا تزيدها المقاومة إلا عنفاً واشتعالاً إن قوة الفطرة لا حد لها فهى ما إن مسها إزاء الكون الهائل والدقيق المتمثل في تفصيلات الأجرام وتنظيماتها ودورة أفلاكها من يوقظها استيقظت كالعملاق وقد يكون ذلك الشئ روعة يحسها الإنسان. وقد يكون لحظة من يقظة الوجدان أو أزمة من الأزمات مثل الموت الذي يروع الحس البشري ويلجئه للبحث عن واهب الحياة. ثم هناك روعة حدوث الأحداث: الليل والنهار والزمان والمكان والموت والحياة والصحة

---

(١) انظر المنهاج القرآني ص ٨٨/٨٩ لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي وانظر نهاية الأقدام للشهرستاني ص ١٢٤،١٢٥،١٢٥

(٢) انظر مداخل إلى العقيدة ص ١٣٨ لأستاذنا الدكتور يحى هاشم

والمرض والغنى والفقر واللذة والألم والسعادة والشقاء كلها توقيعات يوقعها الكون على الحس البشري فتوقظ فطرته إلى الله.

والإسلام يقيم نظامه كله على هاتين الحقيقتين المتقابلتين: حقيقة وجود الخالق، وحقيقة تَوَجُّهْ الفطرة إليه فهو يمنح الإنسان عقيدة في الله تلبي فطرته المتوجهة إلى الله، وتصحح الفطرة وتقومها من خلالها إن ضلت عن حقيقة الله. عقيدة تلبي حاجة الإنسان الفطرية إلى الله، وحاجاتها الفطرية إلى عبادته وحاجاتها الفطرية إلى التعرف على مركزها من الحياة والكون وعلى حقيقة الصلة بينها وبين الله[1]

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص ٩٥ وانظر المعالجة القيمة للأستاذ محمد قطب - التطور والثبات ص ١٨٣،١٨٤ وانظر الدين والفطرة في كتاب دراسات في النفس الإنسانية

المسألة الثانية:

استمرارية التوحيد من آدم إلى نوح عليه السلام

من الآيات ذات المغزى العميق والدلالات الواضحة على أن الأصل هو توحيد الله سبحانه وتعالى، وأن الطارئ هو الشرك والوثنية عكس ما يقوله التطوريون قول الله تعالى﴿**كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وماختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم**﴾ [١] هذه الآية أصل كبير يستدل به جمهور العلماء على أن الناس كانوا على التوحيد. أمة واحدة على الحق والهدى من لدن آدم عليه السلام إلى أول رسول وهو نوح عليه السلام.

واستدل الجمهور على ما ذهبوا إليه بأدلة عقلية ونقلية ولغوية ولكن ذهب البعض إلى خلاف رأى الجمهور وقالوا بأن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر واستدلوا ببعض ما أُثر عن الصحابة والتابعين من آثار فممن ذهبوا إلى أنهم كانوا أمة واحدة على الكفر الحسن وعطاء وأحد قولى ابن عباس عنهم أنهم قالوا :

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٣

كان الناس من وقت وفاة آدم إلى مبعث نوح أمة واحدة على ملة الكفر أمثال البهائم فبعث الله نوحاً وغيره من النبيين [1].

وممن ذهب إلى هذا الرأي في العصر الحديث الإمام محمد عبده وقد نقل رأيه الأستاذ محمد رشيد رضا في تفسير المنار عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين** ﴾ [2] يقول رحمه الله "حمل جمهور العلماء من المفسرين لفظ الأمة في الآية على الملة ثم اختلفوا فيم كانت الملة فقال جمهورهم: أنها ملة الهدى والدين القويم فيكون معنى الآية في رأيهم كان الناس أمة واحدة أي ملة واحدة قيمة الدين صحيحة العقيدة جارية في أعمالها على أحكام الشرائع ﴿**فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه**﴾[3]

يقول رحمه الله "ولما وجدوا أي (الجمهور) أن المعنى لا يكون قويماً لأنه لا معنى لإرسال الرسل إلى الأمم الصالحة المهتدية ليحكموا بينهم فيما اختلفوا فيه إذ لا يتأتى الاختلاف الذي يحتاج في رفعه إلى رسالة الرسل مع استقامة العمل والوقوف عند حدود الشرائع. قالوا لا بد من تقدير في العبارة فيكون الكلام كان

---

(١) تفسير البغوي ج ١ ص ٧٥

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٣

(٣) سورة البقرة الآية ٢١٣

الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشريين ومنذرين، وأنت ترى أن هذا بمنزلة أن تقول "كان زيد عالماً فبعثت إليه من يعلمه ما كان نسيه من معلومات أو كان عاملاً فترك العمل فأرسلت إليه من يعظه في العودة إلى ما ترك من عمله وتقول إن كلامي على تقدير كان عالماً فنسى أو كان عاملاً فترك العمل فبعثت إليه أو أرسلت إليه، وهو مما لا يقبله ذوق عربي" والملاحظة أن الإمام محمد عبده يستخدم كل الوجوه الممكنة لصرف قول الجمهور أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق. ويعرض رأي من قال بأنهم كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال يقول : والأية لم تحدد زمن كان الناس أمة واحدة،وغاية ما في الأمر أن يكون النبيون المبعثون مخصوصين بغير آدم أو نوح. إذا حملت الأمة الواحدة على أمة الضلال والفساد،ولذلك ذهبت طائفة أخرى وفي مقدمتهم ابن عباس وعطاء والحسن إلى أن الأمة الواحدة أمة الضلال التي لا تهتدي بحق ولا تقف بأعمالها عند حد الشريعة واحتجوا على قولهم بهذا التعقيب في الآية فإنه جعل بعثة الرسل تابعة لوحدة الأمة، ولا تكون تلك الوحدة قاضية بالحاجة إلى إرسالهم ليحكموا بينهم في الاختلاف الذي يقع فيهم بسبب الفساد في العقائد والذهاب مع الأهواء الضالة في الأعمال واعتداء بعضهم على بعض لذلك. وانتهاكهم حرمة ما أمر الله برعاية حرمته فيجب أن تكون وحدة الأمة وحدة في الباطل حتى يرد عليه الحق فيزهقه، وأما لو كانت

الأمة واحدة في الهدى واتباع الحق فلا معنى لجعل بعثة الرسل مترتبة عليها كما هو ظاهر، ودفعوا ما يقال من أن آدم كان نبياً وكان أولاده ممن بقي على شريعته فكيف يقال إن الناس كانوا أمة واحدة على الباطل.دفعوه بأن الحكم على الغالب فقد كان الناس لعهد نوح كفار إلا القليل منهم ومن المعروف أنه يقال دار كفر لمن كان أغلب سكانها كفاراً وإن كان فيها مسلمون"[١] ويستند رحمه الله على بعض أقوال المفسرين التي تذهب إلى أن كان في الآية للثبوت لا للمضي. وقد ذهب إلى هذا "ابن العادل" نقلاً عن "القرطبي" يقول: "ونحن ذاكرون لك إن شاء الله ما يجلي المعنى في الآية مقتفين أثر ابن العادل والقرطبي فيما قالاه في معنى **(كان)** وأنها للثبوت لا للمضي"[٢] ويتتبع وصف الأمة في القرآن الكريم ليخلص إلى أن الأمة في الآية كانت على الضلال لا على الحق ثم يتحدث عن الحكمة والغاية من إرسال الرسل وأن الناس لا يستغنون عن هدي الله عن طريق الأنبياء يقول "فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرهم إلا كذلك وهم إنما يعملون بمقتضى آرائهم وينحون في أعمالهم نحو المنافع التي يرونها لازمة لقوام معيشتهم ولم يُمنحوا من قوة الإلهام ما يعرف كلاً منهم وجه المصلحة في حق غيره لتوفير المنفعة بذلك لنفسه

---

(١) انظر تفسير المنار ج ١ ص ٢٢١،٢٢٢

(٢) نفسه ج١ ص ٢٢٣-٢٢٤

لما كانوا كذلك كان لابد من الاختلاف، وكان من رحمة الله بهم أن يُرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين" [١] وهكذا رأينا الإمام محمد عبده ينتصر للرأي القائل بأن الناس كانوا أمة واحدة على الكفر والضلال. ويعمل جاهداً لترجيحه فيتابع رأى من قال بأن ﴿كان﴾ في الآية للثبوت كما في قوله تعالى ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً﴾ وليست للمضي. ثم نراه يبين أن التقدير الذي ذهب إليه الجمهور في الآية "فاختلفوا" غير مقبول من ناحية الذوق اللغوي فإذا كُنْت لا تراه لائقاً بكلامك فكيف تجده لائقاً بكلام الله أبلغ الكلام وأولى قول بملك العقول والأفهام" [٢] وسوف نعرض رأي الجمهور في تفسير هذه الآية ونرجح ما نراه.

وذهب آخرون مثل قتادة وعكرمة وأحد قولى ابن عباس: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح وكان بينهما عشرة قرون كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى ثم اختلفوا في زمن نوح فبعث الله نوحاً فكان أول نبي بُعث ثم بعث بعده النبيين[٣]

يعرض هذا الخلاف إمام المفسرين الطبري بقوله ﴿كان الناس أمة واحدة﴾ كانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فكان أول نبي بعث نوح عليه السلام.

---

(١) نفسه

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ٢٢٤

(٣) نفسه وانظر تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٥٠ وانظر الطبري ج٤ ص ٢٧٥

فكان تأويل الآية على معنى قول هؤلاء: كان الناس أمة مجتمعة على ملة واحدة ودين واحد فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، وأصل الأمة الجماعة تجتمع على دين واحد ثم يكتفي بالخبر عن الأمة من الخبر عن الدين لدلالتها عليه كما قال جل ثناؤه ﴿**ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة**﴾[1] يراد به : أهل دين واحد وملة واحدة فوجه ابن عباس في تأويله قوله ﴿ **كان الناس أمة واحدة** ﴾ إلى أن الناس كانوا أهل دين واحد حتى اختلفوا. هذا الدين الذي كانوا عليه دين الحق كما قال أبيّ بن كعب[2] لكن في أي الأوقات كان الناس على دين واحد ثم اختلفوا؟ يجيب الطبري: يجوز أن ذلك الوقت الذي كانوا فيه أمة واحدة من عهد آدم إلى عهد نوح عليهما السلام كما رَوَىً عكرمة عن ابن عباس وكما قاله قتادة، وجائز أن يكون ذلك حين عرض على آدم خلقه، ويجوز أن يكون ذلك في وقت غير ذلك [3].

ثم يقرر أنه لا دلالة من كتاب الله،ولا خبر يثبت به الحجة على أي هذه الأوقات كان ذلك. ويرى أن الأوْلَىْ القول بما قال عز وجل من أن الناس كانوا أمة واحدة فبعث الله فيهم لما اختلفوا الأنبياء والرسل ولا يضرنا الجهل بوقت ذلك[4]

---

(١) سورة المائدة الآية ٤٨

(٢) تفسير الطبري ج٤ ص ٢٧٩

(٣) تفسير الطبري ج٤ ص ٢٧٩

(٤) تفسير الطبري ج٤ ص٢٧٩

ثم ينفذ إلى ما يراه حقاً وأولى بالقبول فيقول "غير أنه أي ذلك كان فإن دليل القرآن واضح على أن الذين أخبر الله عنهم كانوا أمة واحدة على الإيمان ودين الحق دون الكفر بالله والشرك به.ذلك أن الله قال في سورة يونس ﴿**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضيَ بينهم فيما فيه يختلفون**﴾ [1] فتوعد جل ذكره على الاختلاف لا على الاجتماع، ولا على كونهم أمة واحدة ولو كان اجتماعهم قبل الاختلاف كان على الكفر ثم كان الاختلاف بعد ذلك لم يكن إلا بانتقال بعضهم إلى الإيمان ولو كان ذلك لكان الوعد أولى بحكمته جل ثناؤه في ذلك الحال من الوعيد لأنها إنابة بعضهم إلى طاعته، ومُحَالٌ أن يتوعد في حال الإنابة ويترك ذلك في حال اجتماع الجميع على الكفر والشرك" [2] وهذا ملخص جيد في فهم الآية من إمام المفسرين "الطبري". إذ المناسب أن يتوعدهم الله على الاختلاف فدل ذلك على أنهم انحرفوا عن التوحيد إلى الشرك الأمر الذي استدعى إرسال الأنبياء والرسل. وفي جميع مانقلناه عن "الطبري" نراه ينزع إلى ترجيح أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق لكن الذي توقف فيه الوقت الذي كانوا فيه أمة واحدة ،فلم يحدده ولكن هذا الوقت أورده ابن كثير فيما رَوى عن ابن عباس كان بين نوح وآدم عشرة

---

(١) سورة يونس الآية ١٩

(٢) تفسير الطبري ج ٤ ص ٢٧٩ - ٢٨٠

قرون كلهم على شريعة من الحق، وهذا الأثر عن ابن عباس أصح سنداً ومعنى كما يذهب ابن كثير [(١)] في تفسيره وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال "وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام [(٢)] والمقصود بالإسلام هنا إسلام الوجه لله وتوحيده وطاعته.

أما الرازي في تفسيره فيستدل باللغة والعقل على أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق. ويدلل على ذلك بوجوه منها:-

أولاً : ما ذكره "القفال" من الدلالة بقول الله تعالى (**فبعث الله النبيين**) فهذا يدل على أن الأنبياء عليهم السلام إنما بُعثوا حين الاختلاف ويتأكد هذا بقوله (**وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا**) ويتأكد بما نقل عن ابن مسعود أنه قرأ (**كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين**) إذا عرفت هذا فنقول الفاء في قوله(**فبعث الله النبيين**) تقتضي أن يكون بعثهم بعد الاختلاف ولو كانوا قبل ذلك أمة واحدة في الكفر لكانت بعثة الرسل قبل هذا الاختلاف أولى لأنهم لما بُعثوا عندما كان بعضهم محقاً وبعضهم مبطلاً. فلأن يُبعثوا حينما كان كلهم مبطلين

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج١ ص ٢٥٠

(٢) انظر العقيدة في الله ص ٢٤٦

أولى، ويعلق "الرازي" على ما ذكره "القفال" بقوله "والوجه الذي ذكره "القفال" حسن في هذا الموضوع".

ثانيها: أنه تعالى حكم بأنه كان الناس أمة واحدة فاختلفوا بحسب دلالة الدليل عليه وبحسب قراءة ابن مسعود ثم قال سبحانه **﴿وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه﴾** والظاهر أن المراد من هذا الاختلاف هو الاختلاف الحاصل بعد ذلك الاتفاق المشار إليه بقوله **﴿كان الناس أمة واحدة﴾** ثم حكم على هذا الاختلاف بأنه إنما حصل بسبب البغي وهذا الوصف لا يليق إلا بالمذاهب الباطلة، وهذا يدل على أن الاتفاق الذي كان حاصلاً قبل هذا الاختلاف إنما كان في الحق لا في الباطل.

ثالثها : أن آدم عليه السلام لما بعثه الله رسولاً إلى أولاده فالكل كانوا مسلمين مطيعين لله تعالى ولم يحدث فيما بينهم اختلاف في الدين إلى أن قتل "قابيل" "هابيل" بسبب الحسد والبغي وهذا المعنى ثابت بالنقل والتواتر والآية منطبقة عليه كما يقول الرازي [1].

بهذه الوجوه اللغوية والنقلية والعقلية رجح "الرازي" أن الناس كانوا أمة واحدة على الحق لا على الضلال. **تبقى مسألة الوقت والمدة التي ظلوا فيها على تلك الحالة. لم يتعرض "الرازي" لها. وإن كان عندنا النص الثابت عن ابن عباس كما رواه البخاري بأن المدة كانت عشرة قرون على خلاف في مدة القرن. ثمانون**

---

(١) تفسير الرازي ج٦ ص ١٢

سنة وقيل ثلاثون سنة، والقرن في الناس أهل زمان واحد أو هو الجيل من الناس يقول تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾[1] ويقول تعالى ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾[2] وهذا القرن معناه الجيل من الناس أو أهل الزمن الواحد[3].

وقد ثبت أن أول نبي بعد آدم عليه السلام هو نوح [4] فتكون تلك الفترة على التوحيد الذي جاء به آدم وترك أبناءه عليه. ونحن إذ نرجح أن الناس كانوا أمة واحدة على التوحيد لنقطع الطريق على من ذهبوا إلى أن الإنسان بدأ بالوثنية وانتهى بالتوحيد. ونقول لهم هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إئتونا بعلم إن كنتم صادقين. إن التوجه إلي المظاهر المادية من أوثان ومظاهر طبيعية كان بعد أن بَعُدَتْ بالإنسان المسافة عن مصدر الدين التوحيدي فانحدر من الألوهية إلى المادية [5]. لأن العقيدة في الله عنصر ثابت في النفس البشرية. عنصر قائم في صميم الفطرة يهدي البشرية إلى خالقها وإنما الانحراف الذي يحدث هو انحراف في طريق تصور الله، ومهمة الأنبياء والرسل دائماً هى هداية

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٧

(٢) سورة المؤمنون الآية ٣١

(٣) مختار الصحاح ص ٤٧٥ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤م وانظر العقيدة في الله ص ٢٤٧

(٤) تفسير القرطبي ج٣ ص ٣٠ - ٣٢

(٥) انظر الحكمة العربية في أصالتها الفطرية ص ٣٤٨ لأستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي

البشرية إلى الطريق المستقيم الذي ينبثق منه المشاعر الصحيحة، والسلوك الصالح والتنظيم السليم وليس صحيحاً أنه مرت على البشرية سسلسلة منتظمة من العقائد الضالة أدت في النهاية إلى التوحيد إنما الثابت من التاريخ أن البشرية مرت في دورات متعاقبة من الهدى والضلال من التوحيد والتعدد من التجريد والتجسيم[1].

على أننا يمكن أن نقلب نظرية التطور في الدين بالمفهوم الغربي رأساً على عقب حين نقرر ومعنا النقل والعقل في ذلك. أن الذي تطور لم يكن العقيدة في الله وإنما كان انحراف العقيدة في الله. حين عبدت البشرية مظاهر الطبيعة وعبدت الطوطم كانت في ذلك تنحرف عن العقيدة الصحيحة في الله، وتتصوره تصورات شتى منحرفة. ومن الثابت في التاريخ وأغفله علم الاجتماع الغربي أن البشرية فيما بين انحرافاتها المتكررة قد مرت بفترات فاءت فيها إلى العبادة الصحيحة عن طريق الرسالات السماوية قبل أن تعود مرة أخرى إلى الانحراف بعد تقادم الزمن وتباعد العهد عن الوحي[2]

(١) معركة التقاليد ص ٧٨ - ٧٩ دار الشروق

(٢) التطور والثبات في حياة البشرية ص ١٨٦ محمد قطب - دار الشروق

المسألة الثالثة :

إرسال الرسل

من الآيات ذات المغزى العميق في الدلالـة علـى أن النـاس كان عندهم توحيد، وأن أي جماعة بشرية في أي منطقة من العـالم. إذا وجد عندهم توحيـد أو بقايـا مـن التوحيد فليس ذلـك مـرده إلـى التطور عن التعدد والوثنية -وليس ذلك مـرده إلـى التقـدم الفكـري والعقلي- وإنما مرده بالإضافة إلـى مـاذكر مـن الفطـرة، والميثـاق الذي أخذه الله على بني آدم، وكونهم كانوا أمة علـى التوحيـد. إلـى أن حدث فيهم الشرك.

إرسال الأنبياء والرسل.

يقول تعالى ﴿ **إنـا أرسـلناك بـالحق بشـيراً ونذيـراً وإن مـن أمة إلا خلا فيها نذير**﴾ [1]

يقول الطبري " إن أرسلناك يا محمد بـالحق وهـو الإيمـان بالله وشرائع الدين التي افترضها الله على عباده بشيراً يقول مبشراً بالجنة من صدقك وقبل منك ما جئت به من عند الله مـن النصيحـة ﴿ **وإن من أمة إلا خـلا فيهـا نذيـر**﴾ أي ومـا مـن أمـة مـن الأمـم

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٤ وانظر الإنسان في ظل الأديان ص ٢٤٧

الدائنة. بملة إلا خلا فيها من قبلك نذير ينذرهم بأسنا على كفرهم بالله وعن قتاده وإن من أمة إلا خلا فيها نذير كل أمة كان لها رسول" (١) لتذكير بني آدم من جديد بعقيدة التوحيد الذي فُطروا عليه وبصيغة الحصر والقصر يبين "ابن كثير" أنه ما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النُذر وأزاح عنهم العلل كما قال تعالى﴿**إنما أنت منذر ولكل قوم هاد**﴾ (٢)

وقوله تعالى ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾(٣) ومما تجدر الإشارة إليه أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض. روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال "يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون: لوا ستشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شئ فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحي. ائتوا نوحاً فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض" (٤) والشاهد هنا النص الصحيح والصريح على أن نوحاً عليه السلام هو أول رسول إلى أهل الأرض.

---

(١) تفسير الطبري المجلد العاشر ص ٨٦ وانظر الإحلام والأديان ص ٢٩

(٢) سورة الرعد الآية ٧

(٣) سورة النحل الآية ٣٦

(٤) البخاري باب قول الله ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ انظر فتح البارى ج٨ ص ١٠

وقد أرسله الله ليدعو الناس إلى التوحيد قال تعالى ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون** ﴾[1]

ولكن قوم نوح لما كذبوه وكانت النهاية أهلكهم الله بالطوفان يقول تعالى ﴿ **وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً** ﴾ [2]

وجمع الرسل بالرغم أنهم ما كذبوا إلا رسولاً واحداً وهو نوح عليه السلام لأن من كذب رسولاً واحداً فقد كذب جميع الرسل فلذلك ذكر بلفظ الجمع [3] ، وبعد نوح عليه السلام خلت الأرض من الظالمين ولم يبق فيها إلا الموحدون فلما انحرفوا عن التوحيد أرسل الله إليهم رسولاً. يقول تعالى ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم** ﴾ [4] قيل هود وقومه وقيل صالحاً وقومه والأول أظهر كما يذكر البغوي[5] وقد استمرت رحمة الله ورعايته لبني آدم كلما ضلوا وزاغوا أنزل إليهم الوحي ليضيئ لهم الظلمات ويهديهم إلى صراطه المستقيم[6]

---

(١) سورة نوح الآية ١-٣

(٢) سورة الفرقان الآية ٣٧

(٣) مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ٦٦٠

(٤) سورة المؤمنون الآية ٣٠/٣١

(٥) مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ٦٢٤

(٦) العقيدة في الله ص ٢٤٧/٢٤٨

يقول تعالى ﴿ **ثم أرسلنا رسلنا تترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون**﴾[1] أي مترادفين يتبع بعضهم بعضاً غير متواصلين لأن بين كل نبيين زماناً طويلاً وهى فُعْلَى من المواترة قال الأصمعي: يقال واترت الخبر إذا أتبعتُ بعضه بعضاً وبين الخبرين مهلة[2]

ولكن يبين الله عز وجل أن كل أمة إذا جاءها رسولها كذبوه وكان الجزاء حاضراً. يقول تعالى ﴿ **فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ [3]

وكان التذكير بمصير المكذبين نذيراً لأهل مكة ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة يقول تعالى ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب**﴾ [4] قال ابن مسعود: عضوا على أيديهم غيظاً قال ابن عباس: لما سمعوا كتاب

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٤٤

(٢) مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ٦٢٥

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٤

(٤) سورة إبراهيم الآية ٩

الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم قال قتادة ومجاهد: كذبوا الرسل وردوا ما جاءوا به، وهذه الآية وغيرها تدل على أن الرسل الذين أرسلهم الله إلى الأمم من بعد نوح، وهود، وصالح لا يعلمهم إلا الله[1]. وهذا كقول الله تعالى **﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك﴾**[2] والله سبحانه يعرض أحوال المكذبين يوم القيامة وهم يقرون ويعترفون بأن الرسل قد جاءتهم.

يعرض القرآن الكريم موقف الكفار في نار جهنم يقول تعالى **﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾** [3] والمقصود بالرسل في الآية الرسول الذي يبعث من عند الله للإنذار[4]

وهذه الكثرة من الرسل الذين أرسلوا إلى أممهم يوضحها العدد الكبير الذي حدده رسول الله ﷺ للأنبياء. فيما صححه ابن حبان عن أبي ذر مرفوعاً "أنهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً الرسل منهم ثلثمائة وثلاثة عشر"[5]

---

(١) تفسير البغوي ج١ ص ٤٦٩

(٢) سورة غافر الآية ٧٨

(٣) سورة الملك الآية ٨ – ٩

(٤) انظر مختصر تفسير البغوي ج٢ ص ٩٥٦ وانظر العقيدة في الله للأشقر ص ٢٤٩

(٥) فتح الباري ج٦ ص ٣٦١ كتاب أحاديث الأنبياء

وكان هذا الجم الغفير من الأنبياء لتذكير الناس بالتوحيد وبالميثاق الذي أخذ عليهم من الله أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا.

ولله الحكمة البالغة في إرسال الأنبياء والرسل، وقد التفت إلى هذا المعنى علماء الإسلام قديماً "كالغزالي" وغيره فذكروا أن البشرية كانت في أمس الحاجة إلى الرسالة لأنهم يأتون بما لا تستقل به العقول. مثل ما يجب لله من صفات الكمال، وما يستحيل عليه من النقص، وما يجوز أن يتصف به ومثل المعاد الجسماني وتعيين الحدود، وتعليم ما ينفع وما يضر من الأعمال وكذلك معرفة تفاصيل الثواب للمحسن والعقاب للعاصي لأن العقل في هذه الأمور لا يرشد إلى النافع والضار من الأعمال والأخلاق والعقائد، ولا يفرق بين الشقي والسعيد فكان من لطف الله بعباده أن يرسل لهم رسلاً يبين لهم مالا يستطيعون الاستقلال به بعقولهم [1]. ثم كانت الحكمة البالغة في إرسال محمد ﷺ على فترة من الرسل كخاتم للأنبياء والمرسلين ومتفرد دون غيره من الأنبياء بعموم رسالته ﷺ للثقلين إلى أن تقوم الساعة. يقول سبحانه **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾** [2]

---

(١) انظر الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٦٤ - ١٦٥، والمواقف لعضد الدين الإيجي ص ٣٤٥، والمقاصد للسعد التفتازاني ج ٢ ص ١٢٨

(٢) سورة سبأ الآية ٢٨

الفصل الرابع

العلم التجريبي والدين

المبحث الأول : المذهب الوضعي وشبهه في إنكار الدين

ويشتمل على المسائل التالية:-

المسألة الأولى : قانون الحالات الثلاث "لأوجست كونت"

المسألة الثانية : الأسباب التي أدت إلى سيادة المذهب الوضعي في أوربا

المبحث الثاني : تقويم المذهب الوضعي

ويشتمل على المسائل التالية

المسألة الأولى : عدم إتباع كونت للمنهج العلمي فيما ذهب إليه

المسألة الثانية : العلم التجريبي قائم على الغيبيات.

المسألة الثالثة : إخفاق العلم التجريبي في حل مشكلات الإنسان .

المسألة الرابعة : انتشار السحر والتنجيم في الحضارة الغربية المعاصرة.

المبحث الأول

المذهب الوضعي وشبهه في إنكار الدين

تمهيد

هل يُستغنى بالعلم التجريبي عن الدين؟

منذ أن ظهرت الاكتشافات العلمية، وهناك اتجاه في الغرب يسعى جاهداً لإبعاد الدين، والإكتفاء بالعلم التجريبي، وما يكشف عنه من أسرار الطبيعة وكانت هذه الاتجاهات تأخذ أشكالاً مختلفة في وسائلها. متحدة في غاياتها. فالبعض يعترف بالألوهية ولكنه يطرحها جانباً، والبعض الآخر لا يعترف أصلاً بعالم الغيب وما فيه وما يعبر عنه، وكان الدافع وراء هذه الاتجاهات كلها هو الاغترار بالعلم والاستغناء به عن غيره من شتى التوجيهات وقد عبر البعض صراحة عن ذلك من هؤلاء (ديفيد هيوم) ١٧١١ - ١٨٨٦ م [١] الذي انتقد الأدلة على وجود الله وتساءل لم لا تمد المادة نفسها إلى غير نهاية فنعتبرها الله ؟ ولماذا نبحث للكون عن علة مفارقة. واعتبر أن كل الأعمال العقلية ترجع إلى الترابط الآلي، وتفانى في المناداة بالعلم التجريبي إلى أقصى حد حين قال بضرورة إحراق

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص ٢٩٧

كل كتاب لا يقوم على الرياضةوالتجربة [١] وقد نشط الإتجاه التجريبي القائم على الملاحظة والتجربة لسببين :-

الأول : الانحلال الذي أصاب فلسفة هيجل الميتافيزيقية

الثاني : الأثر الذي أحدثته التجارب والمشاهدات العلمية الحديثة في الصلة بين النفس والجسم[٢].

وقد بلغت النزعة التجريبية المُستبعِدة للدين أوجَها في المذهب الوضعي الذي يُعَرَّفُ بأنه المذهب "الذي لا يعتبر شيئاً حقيقياً واقعياً إلا ذلك الموضوع الوضعي الذي جاء أثراً لتجارب الحس ويمكن مع ذلك اختباره بالحس" [٣]

ويُعد "أوجست كونت" هو الذي قَعّدَ القواعد وأصَّل الأصول للمذهب الوضعي بعد أن أخذ أصوله من "سان سيمون"، و"شارل فوريه"، وقد ذهب "كونت" إلى أن الشرط الأول للنجاح في صياغة المجتمع إعادة وحدة الاعتقاد إلى العقول كما كان الحال في العصر الوسيط لكن بواسطة العلم لا بواسطة الدين لقد أراد أن يصل إلى العلم ويستعين به وحده في تحقيق الهدف المنشود، والعلم الذي يريد أن يصل إليه هو الذي لا يطلب الحقائق الثابتة أو المطلقة لأن ذلك فوق طاقة العلم وعلى غير طبيعته ولذلك فإن ما

---

(١) أسس الفلسفة ٢٤١

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٣٢ - ٣٣٣

(٣) الفكر الإسلامي الحديث ص ٣٠٠

سماه "كونت" بالعلم الوضعي يتجنب البحث عن أسباب الأشياء وعللها، وعن جواهرها وحقائقها ويتجه إلى استنباط القوانين التي تحكم هذه العلاقات[1]

---

(١) انظر تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٦ والفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ص ١٦٤/١٦٥

المسألة الأولى:

قانون الحالات الثلاث "لأوجست كونت" (١٧٩٨-١٨٥٧م)

تقوم فكرة الأطوار الثلاثة عند كونت على فكرة مؤداها أن العقل الإنساني لا يدرك سوى الظواهر الواقعة المحسوسة وما بينها من علاقات أو قوانين وأن المثل الأعلى يتحقق في العلوم التجريبية، ومن ثمَّ يجب العدول عن كل بحث في العلل والغايات[١] ويعبر "كونت" عن قانون الأحوال الثلاثة بالصيغة الآتية " بناءً على طبيعة العقل الإنساني لا بد لكل فرع من فروع معلوماتنا من المرور في تطوره بثلاث حالات نظرية متتابعة. الحالة اللاهوتية أو الخرافية، والحالة المتيافيزيقية أو المجردة، وأخيراً الحالة العلمية أو الوضعية [٢]

وسوف نعرض لهذه الحالات الثلاث كما عرضها "كونت" لنتبين مدى علمية هذه الأطوار الثلاثة التى أراد "كونت" للأخير منها أن يكون بديلاً عن الدين والغيبيات.

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٧

(٢) فلسفة أوجست كونت تأليف ليفي بريل ترجمة د/محمود قاسم و د/ السيد محمد بدوي طبعة ١٩٦٢ نقلاً عن الاتجاهات العلمية المعاصرة ص ١٠



أولاً : المرحلة اللاهوتية " The ologicolstage "

يذكر "كونت" أن الإنسان في هذه المرحلة يبحث فيها عن كنه الكائنات وأصلها ومصيرها محاولاً إرجاع كل طائفة من الظواهر إلى مبدأ مشترك وقد تدرج في ذلك درجات ثلاث : كانت الدرجة الأولى "الفيتشية" "Fetiehisme" يضيف فيها إلى الكائنات الطبيعية حياة روحية شبيهة بحياة الإنسان، وكانت الدرجة الثانية تعدد الآلهة، وهى أكثر الدرجات الثلاثة تميزاً للحالة اللاهوتية يسلب فيها عن الكائنات الطبيعية ما كان خلع من حياة، ويضيف أفعالها إلى موجودات غير منظورة تؤلف عالماً علوياً، وكانت الدرجة الثالثة التوحيد أي جمع كثرة الآلهة في إله واحد مفارق. وهذه المرحلة لها خصائص تتمثل في أن موضوعها مطلق وتفسيراتها فائقة للطبيعة ومنهجها خيالى هذا من الوجهة النظرية أما من الوجهة العملية فقد كانت المعاني اللاهوتية أساساً متيناً مشتركاً للحياة الخلقية والاجتماعية وكانت هذه المرحلة الأولى مرحلة السلطة، وسلطة الكهنة وسلطة الملوك(١)

ثانياً : المرحلة الميتافيزيقية

في هذه الحالة يحاول العقل البشري أن يبحث عن حقيقة الأشياء وأصلها ومصيرها ولكنه يستبدل بالعلل المفارقة عللاً ذاتية يتوهمها في باطن الأشياء وما هى إلا معان مجردة جسّمها له

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٧ - ٣١٨



الخيال فقال: العلة أو القوة الفاعلية والجوهر والنفس والحرية والغاية، وما إليها، وبلغت هذه الحالة أوجها في مذهب وحدة الوجود الذي يجمع في الطبيعة جميع القوى الميتافيزيقية. والفرق بين الحالة اللاهوتية، والحالة الميتافيزيقية أن المجرد يحل محل المشخص الذي كان في المرحلة الأولى. ويحل أيضاً الاستدلال محل الخيال، وهذه المرحلة فترة انتقال، وأداة انحلال هى فترة نقد عقيم ولكنه ضروري إذ يتناول الاستدلال المعاني اللاهوتية فيبين التناقض فيها وإذا كان العقل في هذه الحالة يضع معاني أقوى موضع الإرادات المتقلبة فإنه يضيف من سلطان القوى المفارقة. هذا من الوجهة النظرية.أما من الوجهة العلمية فيبدو الانحلال في انتشار الشك والأنانية فيفصم الفرد الرباط الذي يربطه بالمجتمع ويثقف العقل على حساب العاطفة ويتصور الاجتماع ناشئاً من تعاقد الأفراد، وتقام الدولة على مبدأ سلطة الشعب ويحكمها القانونيون.

المرحلة الثالثة : الوضعية "Positivestage"

في هذه المرحلة يفسر فيها الإنسان الأحداث باعتبارها عناصر خاضعة لقوانين عامة يمكن إدراكها بالمطالعة أو بالمشاهدة العلمية [١] وفي الحالة الوضعية يدرك العقل امتناع الحصول على معارف مطلقة فيقصر همه على تعرف الظواهر واستكشاف قوانينها. فتحمل هنا الملاحظة محل الخيال والاستدلال، ويستعاض

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٣٣



عن العلل بالقوانين أي العلاقات المطردة بين الظواهر فيكون موضوع العلم الإجابة عن سؤال "كيف" لا عن سؤال "لم" واعتبر "كونت" أن الذي تقدمه هذه المرحلة يُعد نهائياً. أما المسائل التي لا تقع تحت الملاحظة فهى خارجة عن دائرة العلم [(١)]

وفي هذه المرحلة لا تذكر "الأرواح والآلهة والقوى المطلقة" ونحن بناءً على هذا نعيش في المرحلة الثالثة التي تسمى بالوضعية أو التجريبية العلمية (Scientifienpiricism) [(٢)]

هذا ملخص قانون الأطوار الثلاثة ذهب إليه "أوجست كونت" واختزل جميع المعارف والعلوم. في هذا القانون خاصة المرحلة الأخيرة منه بالذات. وقد سادت هذه الوضعية وانتشرت في أوربا. وعُرف العصر بأنه عصر الوضعية وظهرت عبارات لبعض الأوربيين تؤكد سيادة هذا المذهب وتنفى ما عداه يقول أحدهم "كل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب بحيث يمكن فحصها أو إثباتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة" [(٣)]

ويذكر "هكسلي" أنه "إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغي أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة" [(٤)]

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٨ - ٣١٩

(٢) الإسلام يتحدى ص ٣٣

(٣) الإسلام يتحدى ص ٣٦

(٤) نفسه ص ٣٦

المسألة الثانية:-

الأسباب التي أدت إلى سيادة المذهب الوضعي في أوربا.

لقد ساد الاتجاه الوضعي أو الواقعي وعرف هذا العصر بأنه عصر الوضعية وكان من أسباب سيادته مايلي:-

أولاً : معارضة الكنيسة التي كانت تملك نوعاً من المعرفة الدينية أو الميتافيزيقية بوجه عام، وذلك لأن الوضعية قامت على أساس تقدير الطبيعة واعتبارها المصدر الوحيد للمعرفة اليقينية لأن الطبيعة في نظر الوضعيين هى التي تنقش الحقيقة في عقل الإنسان وترسم معالمها، والإنسان بناءً على هذا لا يُملى عليه من خارج الطبيعة أي شئ لأن ما يأتي من الميتافيزيقا خداع للحقيقة والدين خداع لأنه وحى ذلك الموجود الذي لا يمثله ولا يحدده كائن من كائنات الطبيعية.

ثانياً: أن الفلسفات التي قامت لمناهضة الدين في أوربا قد فشلت في هدفها في نظر الوضعيين، ولم تستطع تلك الفلسفات أن تُبعد التوجيه الكنسي كلية عن توجيه الإنسان وتنظيم المجتمع بل على العكس مالت بعض هذه الفلسفات إلى تأييد الدين من جديد. ومن ثمَّ رأي الوضعيون أن يعلنوا فلسفتهم حتى يبعدوا الكنيسة

نهائياً عن التوجيه، ولكي يحققوا ما عجزت الفلسفات عنه من إبعاد للدين، وسلطان الكنيسة عن المجتمع [1].

ثالثاً : ارتباط الدين بالكنيسة التي وقفت حجر عثرة في طريق العلم ومن ثمَّ كان المذهب الوضعي خاصة وجميع الاتجاهات المادية والإلحادية رد فعل خاطئ وطارئ لموقف خاص. وليست هذه الفكرة نتيجة نظرة موضوعية لكل من العلم والدين[2]

وقد تسرب رذاذ من المذهب الوضعي إلى العالم الإسلامي وتبناه البعض ودافع عنه يقول "إسماعيل مظهر" : إن قانون الدرجات الثلاث الذي كشف عنه الفيلسوف "أوجست كونت" لأكبر استكشاف وصل إليه العقل البشري في الطبيعة الإنسانية" [3] هذا مايقوله "إسماعيل مظهر" عن قانون الحالات الثلاث الذي تناوله الغربيون بالنقد اللاذع بل إن "كونت" نفسه قد هدمه عملياً بابتداعه ديانة الإنسانية. يقول أستاذنا الدكتور يُحي هاشم معلقا على اتجاه إسماعيل مظهر "لقد أفصح عن كراهية عميقة عارمة للإيمان بالغيبيات فيما أورده.وينقل عنه قوله "عسى أن يكون قريباً أن

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٣٤٢ - ٣٤٣

(٢) الإسلام والعلم التجريبي ص ٩٧ د فاروق الدسوقي - المكتب الإسلامي بيروت

(٣) تاريخ الفكر العربي ص ١٠٩ نقلاً عن الاتجاهات العلمية ص ١٦

الخطوة التي خطوناها في سبيل الخروج من ظلمات الأسلوب الغيبي إلى وضح الأسلوب اليقيني. سوف تقودنا إلى ميدان يتصادم فيه الأسلوبان تصادماً يثير في جو الفكر عجاجة ينكشف غبارها عن الأسلوب الغيبي وقد تحطمت جوانبه واندكت قوائمه"(١)

ومن الذين تأثروا بالمذهب الوضعي الدكتور "زكي نجيب محمود". في كتابه "خرافة الميتافيزيقيا" الذي عدل عنوانه فيما بعد ليصبح "موقف من الميتافيزيقيا" وله كتاب آخر يقرر فيه المذهب الوضعي ويتابع فيه الفكر المادي الغربي هذا الكتاب هو "المنطق الوضعي" (٢)

وسوف ننقل بعض فقرات مما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود. في كتابه خرافة الميتافيزيقيا.

بداية يعرف الميتافيزيقيا بأنها "البحث في أشياء لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً لأنها أشياء بحكم تعريفها لا يمكن أن تدرك بحاسة من الحواس" (٣) يذكر الدكتور البهي رحمه الله أن الكاتب لم يذكر في سطر واحد في كتابه أن المراد من البحث في الأشياء التي لا تقع تحت الحس لا فعلاً ولا إمكاناً (الفلسفة

---

(١) تاريخ الفكر العربي ص ٢١٥ لإسماعيل مظهر نقلاً عن الاتجاهات العلمية ص ١٨. تذكر بعض المصادر أن إسماعيل مظهر تاب إلى الله ورجع عن مناصرته للإلحاد أنظر الموسوعة الميسرة ج٢ ص ٨١٤

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ج٢ ص ٨٢١

(٣) خرافة الميتافيزيقيا ص ١١

الميتافيزيقية) دون الحقائق الدينيـة حتـى لا يدخل الديـن ورسـالته والإسلام وتعاليمه فيما يبحثه ولكنــه عمـم ولـم يقيـد. يقـول الدكتـور زكي نجيب محمود "العبارة الميتافيزيقية التي تخبرنا عن شـئ غير محس عبارة فارغة من المعنى لسبب بسيط : وهو أنها ليسـت ممـا يجيز المنطق أن يكون كلاماً على الإطلاق. فمتى يُقبل الكـلام عنـد المنطق؟ يُقبل الكـلام إذا كـان لـدى السـامع وسـيلة لتحقيقـة فإمـا أن يصدقه بعد التحقيق أويكذبه أما الكلام الذي يستحيل بطبيعة تركيبـه أن نتصـور وسيلة لمراجعـة صدقـه أو كذبـه فهو كـلام خلـو مـن المعنـى" [١] هكـذا بـدون تحديـد يلغـي كـل مـالا يقـع تحـت الحـس والمشـاهدة -من دائـرة الحقيقـة- ونحـن نتسـاءل مـا هـى الوسـيلة الحسية التي يتحقق الإنسان من خلالها لوجود الملائكـة أو الجـن أو الحور العين ناهيك عن كلمة الله؟ إن الكاتب يعمم ولا يقيد كما فعل فلاسفة الغرب[٢].

لنقرأ هذا النص الذي نعتبره بحق من أخطر ما صدر عن الكاتب. يذكر وهو بصـدد الحديث عن كيف تقبل الناس الألفاظ التـي لا معنى لها. ورددوها فيما بينهم ظناً منهم أن لها حقيقة وهى خالية عن الحقيقة. يقول " نشأت الميتافيزيقيا من غلطة أساسية وهى الظن بأنه مادامت هناك كلمة في اللغة فلابد أن يكون لها مدلول ومعنى،

---

(١) خرافة الميتافيزيقيا ص ٧٨

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٣٠٦، ٣١١ بتصرف

وكثرة تداول اللغة ووجودها في القواميس يزيد الناس إيمانا بأنها يستحيل أن تكون مجرد ترقيم أو مجرد صوت بغير دلالة. لكن التحليل يبين لك أن مئات من الألفاظ المتداولة والمسجلة في القواميس ألفاظ زائفة أو هى أشباه ألفاظ، وما أشبه الأمر هنا بظرف يتداوله الناس في الأسواق مدة طويلة على أنه يحتوي على ورقة من ذوات الجنيه حتى يكتسب الظرف قيمة الجنيه في المعاملات. وبعدئذ يجئ متشكك ويفض الظرف ليستوثق من مكنونه ومحتواه، وإذا هو فارغ، وكان ينبغي أن يبطل البيع به والشراء لو تنبه الناس إلى زيفه من أول الأمر"[1]

والتساؤل هنا ما هى الكلمة أو الكلمات الزائفة التي لا معنى لها بالرغم من وجودها والتعامل بها ولو تنبه الناس إلى ما فيها من زيف لبطل البيع بها والشراء؟

أكل الكلمات الميتافيزيقية على هذا النحو، وجماهير الناس لايعرفون " الميتافيزيقيا " فضلاً عن أن يقفوا على مصطلحاتها؟[2]

إن الكلمات التي يقصدها هى الكلمات التي تتعلق بعالم الغيب وهى التي يشبهها بالظرف المغلق. فلما تقدم العلم التجريبي تحقق زيف هذه الكلمات. وكان ينبغي أن يكتشف هذا الأمر من فترة طويلة، ولكن الوسائل لم تكن متاحة أما وقد أتيحت فلا معنى

---

(١) خرافة الميتافيزيقيا ص ١٠٠ – ١٠٥ نقلاً عن الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار

(٢) الفكر الإسلامي الحديث ص ٣١٠

للتعامل مع تلك الألفاظ. ذهب إلى هذا الرأي الدكتور "زكـي نجيـب محمود". متابعة للفكر الغربي المادي الذي تبنـاه "أوجسـت كونـت" وغيره من أتباع الوضعية المنطقية، وقد ذهب البعـض إلـى رجـوع صاحب هذا الكلام عنه في آخر حياته[1]

(١) انظر مجلة المجتمع الكويتية العدد ٨٥٥ في ١٤٠٨/٦/١٢ هـ وانظر الصحوة الإسلامية في عيون مختلفة الدكتور نعمان السامرائي ص ٩٢ - الناشر دار المنارة للنشر والتوزيع جدة الطبعة الأولى ١٩٩٣ م

المبحث الثاني

تقويم المذهب الوضعي

مناقشة "أوجست كونت" وأتباعه في مدى علمية قانون الحالات الثلاثة

المسألة الأولى: عدم اتباع "كونت" المنهج العلمي فيما ذهب إليه

١ - ما هو رأي "كونت" فيما يقرره العلم -الذي يعتبره "كونت" هو الحكم النهائي لأي أمر من الأمور؟- العلم يقول إن الجنس البشري عمره ملايين السنين. فكيف تم لكونت من الناحية العلمية توزيع الحالات الثلاثة على هذه الملايين على أعتبار أن المرحلة الثالثة الواقعية أو العلمية بدأت في زمنه؟ إنه إلزام لا يجد "كونت" ولا أتباعه جواباً عليه(١).

إن نقطة الخطأ في المذهب الوضعي تتمثل في أن أنصاره جعلوا منه قانوناً يستوعب التاريخ كله في شرط واحد قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل ونفضت يدها أو كادت منها إلى غير رجعة فلن تعود إليها إلا أن يعود الكهل إلى طفولته وشبابه ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية كلما ختمت شوطاً رجعت عوداً على بدء لكان الخطأ أقل شناعة ولكنها أيضاً تظل دعوى غير سليمة لا لأنها مجردة عن البرهان فحسب بل لأنها تُحرف التاريخ وتصادم

---

(١) انظر الإسلام والاتجاهات العلمية المعاصرة ص ١١



العيان[1] ثم إن "أوجست كونت" عندما وضع نظريته الوضعية لم ينظر في العلوم الدينية والعلوم التجريبية نظرة موضوعية وإلا كان لزاماً عليه أن ينظر في علوم سائر الأديان وخاصة الإسلام. قبل أن يعمم الحكم الذي استخلصه من النظر في دين الكنيسة على كل الأديان. وهذا التعميم مخالف للموضوعية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه لم يستخلص نظريته من مجرد النظر في الدين والعلم ولكنه أتى وقد اعتقد بفكرة تنازعهما وتعارضهما ثم حاول أن يأتي بالشواهد الدالة على هذا الحكم الموضوعي السابق، والمذهب الوضعي في تحليله النهائي جاء نتيجة رد فعل العقل الأوربي لموقف الكنيسة من العلم. ومن ثمَّ فهو إفراز خالص لحالة رد الفعل وهذا يمنع كونها نتيجة بحث موضوعي[2]

٢ - يختلف الطريق الذي سلكه العقل الإنساني عن ذلك الذي حدده "كونت" ففي كثير من الأمور كان الفهم الوضعي للأمور يسير مع الفهم الديني أو الميتافيزيقي ففي مجال فهم الحقائق الرياضية والفلكية مثلاً أمور كانت تسير مع الفهم قديماً، ولا تزال بعض المجتمعات تفسر الحقائق العلمية القائمة تفسيراً دينياً على الرغم من أننا نجتاز حالياً المرحلة الوضعية في نظر "كونت"[3]

---

(١) الدين للدكتور دراز ص ٨٤/٨٥ وانظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب ج٢ ص ٨٢٢

(٢) الإسلام والعلم التجريبي ص ٩٩ / ١٠٠ د / فاروق الدسوقي

(٣) الموسوعة الميسرة ج ٢ ص ٨٢٢

وكما يقول الدكتور دراز (إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة في نفس كل فرد ففي الوقت الذي نفسر فيه الحوادث العادية بأسبابها المباشرة خارجية أو داخلية. فنقول مات فلان بكذا أو هلك فلان بكذا لا يزال كل واحد منا يفسر الحوادث الشاذة الخارقة بالقضاء والقدر أو بسبب غير حسي معلوم. بل نذهب أبعد من هذا حين نقول إن الفطرة الموضوعية تقع في بداية الطريق لا في نهايته. وأن ما ظنه "كونت" يمثل مرحلة النضج العقلي. يمثل مرحلة الطفولة النفسية لا مرحلة النضج، والكمال ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة، وضرورة الحياة اليومية وبأنها وظيفة الحس لا العقل وبأنها من معدن القابلية والانفعال لا من معدن الفاعلية والإنشاء أما نظرة التعليل فإنها تنبثق في النفس على إثر ذلك متى استيقظت ملكة التجريد والتعميم في التصورات والأحكام أما المرحلة الدينية فواضح أنها لا تولد في النفس إلا حينما يتسع أفقها فتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه فهي أوسع النظريات مجالاً وأبعدها مطلباً وهكذا ينقلب الترتيب الذي تخيله الفيلسوف رأساً على عقب والحاجات النفسية المعقولة. حاجة الحس فحاجة العقل فحاجة الروح أو إن شئت قلت حاجة الحس فحاجة العقل القانع فحاجة العقل المتسامي المتمثلة في الدين[1] وهذا النقد الذي يوجه إلى النظرية في بنيانها الفكري يأتي على أصولها من

---

(١) انظر الدين للدكتور دراز ص٨٥ - ٨٧ بتصرف وانظر الإسلام والعلم التجريبي ص٩٧ - ٩٨

القواعد. وهى تفسيرات لا مجال لإنكارها أو المزايدة عليها. إن "كونت" بهره العلم التجريبي فحصر فيه كل الحقيقة وجاءت فلسفته الواقعية هى الفلسفة المادية بالرغم من تحفظه إذ أنها تؤدي إلى النتيجة ذاتها، وهى إنكار الميتافيزيقيا أي الغيبيات [١]

ديانة الإنسانية وهدمها للمذهب الوضعي

أين العلم الوضعي عند مدَّعيه "كونت" فيما اخترعه من ديانة الإنسانية [٢] بعد أن رفض الأديان جميعها. صنع ديناً جعل المعبود فيه هو الإنسان بدلاً من الله.

(إمرأة) تدعي "كلوتيلد دي فو" والكتاب المقدس لدي الإنسانية إنجيل الوضعية. عبارة عن الرسائل المتبادلة بينه وبينها، والمعبد هو شقتها التي كانت تعيش فيها، وقدس الأقداس الكرسي الذي كانت تجلس عليه وبعض متعلقاتها الشخصية بل أكثر من هذا صاغ صلاة لها. يقف هو وأتباعه أمام تمثال أم البشرية لمناجاتها. وصارت تلك المرأة هى شيطانه الذي يوحي إليه أثناء تحريره كتابه الكبير (مذهب في السياسة الواقعية) أو كتاب (في علم الاجتماع) يصنع ديانة الإنسانية (١٨٥١ - ١٨٥٤) في أربعة

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٢٩

(٢) ديانة الإنسانية هى (عبادة الإنسانية باعتبارها الموجود الأعظم التي تشارك فيه الموجودات الماضية والمستقبلة المساهمة في تقدم بني الإنسان وسعادتهم) تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٢٨

مجلدات واختصره في كتاب (التعليم الديني الواقعي) أو عرض موجز للديانة الكلية ١٨٥٢ م [١] وقد أدى صنيعه هذا إلى اعتزال تلاميذه له وعدوه خارجاً عن الفلسفة الواقعية الخاصة [٢] فأي شيئ أكبر شهادة على أن نهاية العلم البشري ليست هى إطفاء الغريزة الدينية. بل زيادة إشعالها من أن مؤسس المذهب الوضعي وكبار أتباعه كما يقول الدكتور دراز "قد انتهو إلى الاعتراف صراحة.

أوضمنا بهذه الحقيقة بناءً على تجربتهم في أنفسهم. فهذا "كونت" نفسه الذي كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية لتقدم العلوم فعاد آخر أمره إلى الدين، وكلل حياته بوضع ديانة جديدة طبعها على غرار النظام الكنسي للديانة الكاثوليكية في عقائدها وطقوسها، وأعيادها وطبقات قساوستها. رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغير إلا أشخاصها"[٣] ولكنه استبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير. رجع إلى وثنية بدائية ساذجة ذكرتنا بأشدِ الشعوب همجية حين تتحرف عن الوحي والحق، وصدق الله العظيم إذ يقول﴿ **إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً**

---

(١) نفسه ص ٣١٧ وانظر المبحث الخاص بالمذهب الوضعي في كتاب أستاذنا الدكتور يحى هاشم في مواجهة الإلحاد المعاصر - نشر مجمع البحوث الإسلامية

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة ٣٢٧

(٣) الدين للدكتور دراز ص ٩٤ بتصرف

مريدا﴾[1] وهى وإن نزلت في أهل مكة الذين كانوا يعبدون الأوثان ويسمونها باسم الإناث إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون. ولذا فإن الآية عامة في أمثال "كونت" ومن بعده في كل زمان ومكان. وتأتي الدقة في التعبير بالإناث. كما ورد عن الحسن وقتادة إلا إناثاً : أي موتاً لا روح فيه لأن أصنامهم كانت من الجمادات سماها إناثاً لأنه يخبر عن الموت كما يخبر عن الإناث ولأن الإناث أَدْوَنْ الجنسين كما أن الموات أرذل من الحيوان[2] وقد تحققت الخستان في المعبودة التي عبدها كونت بعد مماتها، وأقيمت لها المعابد في باريس بل إن أكبر المعابد لأتباع الوضعية في البرازيل. إنهم تركوا الإله الحق واتخذوا آلهة متعددة عبدوها من دون الله وأنزلوا عليها صفات الإله الحق...، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وبصره وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون﴾**[3] **﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾**[4] إن الله يرسم صورة للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت الذي يحركها وتشعر به وهو الله. ثم تتعبد للهوى وتخضع

---

(١) سورة النساء الآية ١١٧

(٢) مختصر تفسير البغوي ج ١ ص ١٩٦

(٣) سورة الجاثية الآية ٢٣

(٤) سورة الجاثية الآية ٢٣/٢٤

له وتقيمه إلهاً قاهراً مستولياً عليها، وإن العجب من الذي اتخذ إلهـه هواه بعد أن عـرف الحـق، ولكنـه لـم يرعـوى لهـدى اللـه فاسـتحق الإضلال من الله وتركه في عمايته وختم على سـمعه وقلبـه وجعـل على بصره غشاوة. (١)

---

(١) في ظلال القرآن ج٥ ص ٣٢٣٠ /٣٢٣١

المسألة الثانية

العلم التجريبي قائم على الغيبيات

منذ أن ظهر العلم التجريبي وكثير من الناس في فتنة عمياء من هذا الصنم الجديد.لقد سرت في كثير من الناس يقين أو شبه يقين إنه إذا قال العلم الحديث أو اكتشف العلماء كذا. حتى تنصب هالة عليه.[1] وكأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإذا ذكرت لهم أن الدين يقول أو قال الله أو قال رسوله تراهم يعرضون أو على الأقل لا يكون إنصاتهم لمثل إنصاتهم لما يقرره العلم خاصة إذا كان القول مرتبطاً بالأسماء الأجنبية أو المراجع الأوربية أو الأمريكية. وصدق الله إذا يقول ﴿ **وإذا ذكر الله وحده إشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون**﴾[2]

وها نحن نستشهد بأقوال أساطين العلم التجريبي للتدليل على أن العلم التجريبي يستخدم في بنيته نفس الأمور التي يستخدمها الدين. من حيث الاعتماد على أمور غيبية. فإذا كان المؤمن يؤمن بقوة غيبية لا تُرى هذه القوة هى الله.فإن الماديين يؤمنون بقوة غيبية لا تُرى وهم مضطرون إلى ذلك. فما القانون

---

(١) انظر الأقوال التي نقلها الأستاذ محمد فريد وجدي عن الغربيين في هذا المعنى في كتابه الإسلام في عصر العلم

(٢) سورة الزمر الآية ٤٥

العلمي والقوة والحركة والزمن والأزلي والأبدي إلا مفاهيم لا تخضع للحس والمشاهدة ومع ذلك لا يجرؤ أحدٌ من الذين يشتغلون بالعلم التجريبي أن ينكرها وإلا لكان علمه سانجاً واتهمه زملاؤه بالسطحية يقول "وحيد الدين خان" : "إن أي عالم من علماء عصرنا لا يستطيع أن يخطو خطوة دون الاعتماد على ألفاظ مثل القوة (Force) والطاقة (Energy) والطبيعة (Nature) وقانون الطبيعة (lawof nature) وما إلى ذلك ولكن هذا العالم لا يدري ما القوة والطبيعة وقانونها. فهو قد صاغ كلمات تعبر عن وقائع معلومة لكي يدلل على علل غير معلومة، ولكن هذا العالم لا يقدر على تفسير هذه الألفاظ تماماً كعالم الدين. كلاهما يؤمن بدوره بعلل غير معلومة"[1]

يقول أحدهم "إن العلوم مهمة بتحسين نظرياتها وهي تحاول أن تكشف عن كُنه الحقيقة ولكنها كلما اقتربت من هذين الهدفين زاد بعدها عنهما.إن فكرتنا قائمة على أساس حواسنا القاصرة وعلى استخدام ما لدينا من الأدوات غير الدقيقة نسبياً إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية كما لا تستطيع أن تفسر لنا بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة"[2] ذلك واحد من

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٦١/٦٢

(٢) انظر مقال المادية وحدها لا تكفي - ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٥٧

المهتمين بالعلم التجريبي يقول هذا الكلام بعد "كونت" بأكثر من قرن. مع التقدم النسبي في أدوات العلم التجريبي في عصره مُقَارَنَة بزمن "كونت" إذا كانت العلوم لا تستطيع أن تُفسر وهذا العجز يُصرح به ؟ إذن فلا مناص من الاعتراف بالله ليفسر لنا ما عجزت العلوم عنه وما ستعجز عنه مستقبلاً. إن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين والعلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة يقول " الكسيس كاريل" "إن الكون الرياضي شبكة معقدة من القياسات والفروض لا تشتمل على شئ غير معادلة الرموز التي تحتوي على مجردات لا سبيل إلى تفسيرها" [١] إذن فمن الذي يفسر ومن الذي يعطي اليقين؟إنه الدين الصحيح المتمثل في الإسلام.

يقول أحد علماء الفيزيقيا " إننا نستطيع أن نبني كثيراً من النظريات على عدد قليل من البدهيات أو تلك الفروض التي نسلم بها ونقبلها دون مناقشة أو جدال حول صحتها، وعند إثبات أي نظرية نجد أن برهانها يعتمد في النهاية على مسلمات أو أمور بديهية، ومع ذلك فإن النظريات مجتمعة لا تستطيع أن تقدم دليلاً على صحة بديهية من هذا البديهيات. فالواقع أننا نقبل البديهيات

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٦٢

قبول تسليم وإيمان"[1] ويضيف قائلاً "وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أنه تسليم وإيمان أعمى لا يقوم على البصيرة، وكذلك الحال فيما يتعلق بوجود الله فوجوده تعالى أمر بديهي من الوجهة الفلسفية والاستدلال بالأشياء على وجود الله لا يرمى إلى إثبات البديهيات ولكنه يبدأ بها"[2]

هذه أقوال الباحثين في العلوم وفلسفتها في القرن العشرين. يقررون أن العلم التجريبي يقوم على التسليم والإيمان.

يقول أحدهم "إنني أسلم بوجود اللاماديات لأنني بوضعي من علماء الفيزياء أشعر بالحاجة إلى وجود سبب أول غير مادي. إن فلسفتي تسمح بوجود غير المادي لأنه بحكم تعريفه لا يمكن إدراكه بالحواس الطبيعية فمن الحماقة إذن أن أنكر وجوده بسبب عجز العلوم عن الوصول إليه، وفوق ذلك فإن الفيزياء الحديثة قد علمتني أن الطبيعة أعجز من أن تنظم نفسها أو تسيطر على نفسها"[3] هل إذا وضعنا مفهوم المذهب الوضعي الذي لا يعتبر شيئاً حقيقياً ولا واقعياً إلا إذا كان يمكن إدراكه بالحس ويخضع للتجربه.

---

(١) انظر منطق الإيمان – لجورج هربرت بلونت أستاذ الفيزياء التطبيقية ضمن الله يتجلى في عصر العلم ص ٨٥

(٢) نفسه

(٣) المبدع الأعظم مقال كلودم ها ثواي ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٩٦

أقول بعد الذي قرأناه يُعد تعريف الوضعية صحيحاً أوله مكان وسط العلم ؟؟

إن قانون الجاذبية لا يمكن ملاحظته قطعاً وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية وإنما هي أشياء أخرى اضطروا لأجلها منطقياً أن يؤمنوا بوجود هذا القانون. ماحقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية؟ ها هو "نيوتن" يتحدث في خطاب أرسله إلى أحد أصدقائه " إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهى تؤثر على أخرى مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما"(١) والحق ما يقوله العلامة الدكتور "دراز" حين يذكر أن العلم يؤمن اليوم بأن في الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد، ولا المجهز بأقوى المجاهر المزود بأدق المقاييس، والموازين، وبالجملة أصبح يؤمن بأن التجربة الحسية المباشرة ليست هى المعيار الوحيد للوجود وهكذا وضع بيده اللبنة الأولى في القاعدة التي تقوم عليها الأديان"(٢) لقد وضعت نظريات عديدة لكي تُفَسِرٌ لنا كيف نشأت الحياة من عالم الجمادات فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة نشأت من البروتوجين أو من الفيروس أو من تجمع بعض الجزيئات البروتينية الكبيرة وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوة التي تفصل بين عالم الأحياء وعالم

---

(١) الإسلام يتحدى ص ٦٤

(٢) انظر الدين للدكتور دراز ص ٩٠

الجمادات، ولكن الواقع الذي ينبغي أن نسلم به هو أن جميع الجهود التي بُذلت للحصول على المادة الحية من غير الحية قد باءت بخذلان وفشل ذريعين. إن كل خلية حية بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهما وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته سبحانه وتعالى شهادة تقوم على الفكر والمنطق[1] هذه النصوص كلها أليست شاهدة على مدى التعصب والهوى عند بعض الذين يتعاملون مع تلك الغيبيات في العلم التجريبي. وهم مضطرون لذلك. وإلا ستتوقف البحوث تماماً -ولن يتقدم العلم قيد أنملة- لكن إذا عُرض عليهم الدين رفضوه لأنه يقوم على الغيبيات ومن ثمَّ أنكروا حقائق هي أوثق مما يتعاملون معه باسم العلم. إن هؤلاء وأولئك ينطبق عليهم قوله تعالى

﴿ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[2]

وقول تعالى **﴿ولا تُطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطا﴾**[3] أي ضياعاً وقيل معناه ضيع أمره وعطل أيامه في الباطل ومخالفة الحق[4]

---

(١) انظر مقال رسل تشارلزز أرنست الخلايا الحية تؤدي رسالتها ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم ص ٨٣ وانظر الإسلام والعلم التجريبي ص ٩٨

(٢) سورة الروم الآية ٧

(٣) سورة الكهف الآية ٢٨

(٤) تفسير البغوي ج٢ ص ٥٣٥

المسألة الثالثة:

إخفاق العلم التجريبي في حل مشكلات الإنسان

لقد استعرض "كونت" تاريخ البشرية قبل عهد العلم والصناعة واستخلص منه أن عهدين قبل هذا العهد مراً بالإنسانية ولم يزل الإنسان في طور الغاب والحيوانية، والغريزة العمياء، والأنانية رغم وجود الدين "الكنسي" كمصدر للتوجيه في عهده ووجود الفلسفة بعده في عهد آخر، ورغم إسناد التوجيه في العهد الأول إلى رجل الدين والحرب وفي العهد الثاني إلى رجل الفلسفة ورجل القانون، ولكن عصر العلم، والصناعة بعدهما وإسناد التوجيه فيهما إلى رجل العلم والصناعة كفيل في نظره بنقل الإنسان من هذا المستوى الغريزي الحيواني إلى المستوى الإنساني بمعناه الصحيح[1] وفي رأيه أنه "كلما تقدم العلم وقوي الإيمان بالإنسانية كلما تقدم الإنسان وابتعد عن الحيوانية وعن سيطرة الغريزة العمياء وتحكم الأنانية"[2] ونحن الآن بعد مضي فترة ليست بالقصيرة تقدم العلم التجريبي فيها أضعاف أضعاف ماكان عليه في عهد "كونت" والمفترض بناءً على طرح "كونت" أن تحل جميع المشاكل المتعلقة بالإنسان فهل حدث هذا؟ وحل العلم المشاكل

---

(١) الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر ص ٣٩٥ الدكتور محمد البهي.

(٢) نفسه ص ٣٩٧.

التي تؤرق الإنسان في العصر الحديث؟ وهل انتهت القرصنة وشريعة الغاب؟ وهل بعد التقدم العلمي المذهل الذي تسبب في ملء خزانات الدول والأفراد في الغرب الصناعي بالأموال. شعر إنسان القرن العشرين بالسعادة؟ أسئلة يجيب عليها الواقع وتشهد لها التجربة، يقول "روجيه جارودي" "إن الاعتقاد بقدرة العلوم الموضوعية والتقنيات المتقدمة على حل مشكلاتنا، والقول بأن مفتاح جميع القضايا الإنسانية في يد هذه العلوم والتقنيات وهمٌ، خرافي فتاك. وقد صب هذا الاعتقاد بكل غباء ولامبالاة انتحارية في قالب عصري كاذب يقول "لايمكننا وقف التقدم"[1] ويقارن "جارودي" بين أكثر النماذج وحشية في التاريخ وبين ما فعله العلم وتقنياته بقوله "لقد أمضى تيمور لنك بعد الاستيلاء على أصفهان عدة أيام في ذبح سبعمائة ألف من البشر. أما في هيروشيما فلقد وصل الإنسان إلى النتيجة نفسها خلال ثوان معدودة وهذا – لعمري – تقدم علمي لامراء فيه، وعالم اليوم يملك مايوازي مليون قنبلة من قنبلة هيروشيما "أي ما يعادل خمسة أطنان من المتفجرات التقليدية على رأس كل مواطن على هذا الكوكب"[2] هذا هو العلم التجريبي الذي يُتخذ صنماً يُعبد من دون الله. والذي يذهب "كونت" إلى قدرته على حل المشاكل– نعم إنه يحل مشكلة– ولكنه يخلق

(١) مايعد به الإسلام ص ١١٤ – ١١٥

(٢) نفسه.

صعوبات لاحصر لها، مع غياب الموجه لهذا العلم وتلك التقنية يذكر "روجيه جارودي" هذا الذي عاش في قلب الحضارة الغربية وسبر أغوارها.إن تحسين الغرب لتقنياته في قطع أشجار الغابات، وفي تطوير زراعة المحصول الواحد. لم يؤد إلا إلى موت خمسين مليوناً من البشر جوعاً في العالم الثالث، وهذا الرقم سيصل إلى خمسة وثمانين مليوناً بعد كل خمس سنوات بعد أن تسببت تقنياته إلى تعرية جبال الهملايا، وفيضانات بنجلادش[1] إنه التقدم العلمي الذي يرمي بالفائض من الحبوب في البحار للمحافظة على السعر العالمي. إن الدول المتقدمة تصرف مائة مليار سنوياً على الخمور وثلاثمائة مليار دولار على التسليح ويكفي استعمال ٣٪ فقط من مصروفات الخمور أو بتخفيض ١٪ فقط من مصروفات التسليح لكي تتوفر المياه النظيفة في العالم[2] فهل فعل أرباب العلم التجريبي؟ أم أن العلم التجريبي يخص جنساً دون جنس، واقع الأمر يقول ذلك إن الإنسان الأبيض، وهو إنسان المجتمع الأمريكي والغربي مجتمع "كونت" لايزال يباشر التفرقة العنصرية في سياسته مع غير الإنسان الأبيض النصراني. لأنه من الممكن أن يكون أبيضاً وتمارس ضده تلك التفرقة وما المسلمون في أوربا. في

---

(١) نفسه.

(٢) الحرمان والتخلف في ديار المسلمين ص ٣٥ - ٣٦ د/ نبيل صبحي "كتاب الأمة" العدد ٧ شوال ١٤٠٤

البوسنة والهرسك والبلقان إلا خير شاهد على ذلك. وليتأمل معنا القارئ النموذج الذي نورده للتدليل على أن إنسان العلم التجريبي قد تجرد من كل إنسانية وهو يتعامل مع غير الأبيض النصراني.

أوردت مجلة المجتمع الكويتية في أحد أعدادها ملخصاً لكتاب بعنوان "الإيمان والدين" لمؤلفته الهولندية "سوزان جورج" تتحدث في هذا الكتاب عما يقوم به سدنة النظام الرأسمالي نتاج العلم التجريبي. تقول "يكتب نائب رئيس البنك الدولي للتنمية الاقتصادية في تقرير له عن تصدير الصناعات القذرة لدول العالم الثالث وضرورة قيام البنك الدولي بمساعدة تصدير هذه الصناعات والحجج القوية الدافعة لهذا العمل ما يأتي:-

١ - عندما تلقي النفايات السامة في بلد متوسط دخل الفرد فيه (٢٠٠٠٠) عشرون ألف دولار سنوياً، ومتوسط عمره الحالي أربعين سنة ويتوقع أن يعيش خمسة وعشرون عاماً أخرى فإن الاقتصاد العالمي يتوقع دخلاً يساوي (٢٠x٢٥)= ٥٠٠٠٠٠ خمسمائة ألف دولار في حين أن الفرد في العالم الثالث يتوقع أن يكون دخله على أحسن الفروض (٣٠٠دولار) في السنة ويتوقع أن يعيش خمسة عشرة سنة أخرى ولذلك فهو لا يضيف إلى الاقتصاد العالمي سوى (١٥x٣٠٠) = ٤٥٠٠ دولار فإلقاء النفايات في البلد الثاني يشكل تصرفاً منطقياً.

٢- إن كثيراً من بلدان العالم الثالث تعداد سكانها منخفض، ودرجة التلوث فيها منخفضة بما يعني أن هواءها وماءها أقل تلوثاً من دول العالم الأول الصناعي وبذلك يكون منطقياً إلقاء النفايات هناك حتى تلحق بدول العالم الأول. في درجة تلوث بيئتها.

٣ - إن الشحاذين لا خيار لهم فإذا أرادوا أن يقبلوا معوناتنا فعليهم أن يقبلوا شروطنا[1]

بهذه المعادلة البسيطة ينظر نائب رئيس البنك الدولي للتنمية.للبشر من غير دول العالم المتقدم. إذا كان موت فرد من دول العالم الثالث يكلف الاقتصاد العالمي (٤٥٠٠) دولار وموت أحد أفراد العالم الصناعي الأول يكلفه (٥٠٠٠٠) خمسمائة ألف دولار. فلتكن التضحية بأفراد العالم الثالث. والتعليل بسيط ما داموا يأخذوا معوناتنا فليقبلوا شروطنا -التي تعني الهلاك والدمار الحسي والمعنوي- وهنا نقول أين ديانة الإنسانية. وهل استطاعت أن تحد من غلواء الغربي ؟ وهل هذه السياسة العنصرية أمارة على العلم؟ وبالتالي على تقدم الإنسان أم دليل واضح على الاعتقاد بالخرافة، وبالتالي على التخلف كما يقول الدكتور البهي رحمه الله[2]

---

(١) انظر مجلة المجتمع الكويتية وانظر للحقيقة نقط منذر الأسعد نفيه نماذج لا حصر لها عن الرجل الأبيض وأخلاقيات العلم التجريبي

(٢) انظر كتابه الفكر الإسلامي المعاصر مشكلات الحكم والتوجيه ص ٣٩٨ وما بعدها

الحق أن حضارة الغرب قد أقامت ناطحات السحاب وأجرت مراكب الفضاء بين الكواكب ووضعت قدم الإنسان على وجه القمر، وغمرت الأسواق بألوان الرفه والترف ولكنها لم تُدخل على مشاعر الناس وأحاسيسهم إلا القلق والحيرة ولم تسكب في قلوبهم إلا الأثرة والأنانية ولم تُثر في تفكيرهم إلا دوافع العدوان والتسلط[1]

ينقل الأستاذ "محمد فريد وجدي" عن العلامة "كاميل فلا مريون" قوله " لا يجوز لنا أن نخجل من الاعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لا همَّ لها إلا أغراضها الذاتية.أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوده جميعها والحصول على المجد بطريقة الاغتيال لا الكسب والجمود وعدم الاهتمام بالواجبات؟ وإن من التناقض البيِّن المؤلم أن نرى هذا الرُقي الباهر الذي حصل في العلوم مما لا مثيل له في التاريخ وأن هذه الفتوحات المتوالية التي تمت للإنسانية في الطبيعة بينما رفع عقولنا إلى الدرجات العالية، قد هبط بإنسانيتنا إلى أخس الدرجات"[2] وبالفعل أُشبع جانب في

(١) الله ذاتاً وموضوعاً ص ٥١ للأستاذ عبد الكريم الخطيب - دار الفكر العربي

(٢) الإسلام في عصر العلم للأستاذ محمد فريد وجدي ج١ ص ٢٨٣ بتصرف يسير وانظر أيضاً من ٢٢٨-٢٤٣

الإنسان وأهملت جوانب أخرى كثيرة. وذلك مرده إلى النظر للأمور من جانب واحد. وهذا شأن الإنسان حين لا يكون له مرجع صحيح يتمثل في دين حق يرجع إليه والدين الحق الذي نقصده هو الإسلام.

المسألة الرابعة:

انتشار السحر والتنجيم في الحضارة الغربية المعاصرة على الرغم من العلم التجريبي :-

هذه الحالة هى التي دفعت الأفراد في المجتمعات الغربية إلى الهروب من هذا الجحيم إلى الوهم والسراب حيث قارئات الفنجان. وضاربي الودع بعد قرن ونصف من تبشير "كونت" بالمذهب الوضعي وأربعة قرون من ولادة ديكارت صاحب العبارة الشهيرة "أنا أفكر إذن فأنا موجود" كل هذه العقلانية والوضعية اللتان بزغتا من فرنسا. لم تَحُلْ دون تفشي ظاهرة لجوء الفرنسيين المتزايد لقارئي الطالع الذين يبلغ عددهم في إحصاء رسمي الخمسين ألف ممتهن بينما عدد الكهنة الكاثوليك لا يتجاوز الستة والثلاثين ألفاً، وعلماء النفس الستة آلاف) أما مهنة التنجيم في فرنسا التي يقدر عدد زبائنها المدمنون بمليون ونيِّف، وهناك فروع عدة من قراءة الفنجان إلى قراءة الكرة الزجاجية إلى قراءة ورق الكوتشينا إلى قراءة الغيب في كوب ماء،إلى السحر الإغريقي والمندل المغربي إلى الوصفات العجائبية من الأعشاب والسوائل والحجابات والأبراج.وبالرغم من أن القضاء يلاحق من حين لآخر بعض المشعوذين الذين يتعاطون هذه المهنة لابتزاز بعض العجائز فإن ظاهرة التنجيم وقراءة البخت والسحر تلفت النظر في وطن "ديكارت" أما في الجانب الآخر من المحيط الأطلسي فإن اللجوء

المتزايد إلى الأطباء النفسانيين والعقلانيين للمعالجة فضلاً عن انتشار عبادة الشيطان إلى الهيبز،وغير ذلك من البدع التي تظهر كل حين وآخر. وتتساءل صحيفة "النيويورك تايمز" عن سر انتشار هذه المظاهر في فرنسا؟ وتجيب الصحيفة عن السبب في ذلك بأن الفرنسيين هم رواد المتناقضات. وتدلل الصحيفة بأمثلة كثيرة على هذه المتناقضات. إلا أن الإجابة التي يصعب تجاهلها. وهى من العوامل الرئيسة في انتشار هذه الأشياء في موطن "ديكارت" و"كونت" هي العطش الروحي والقلق النفساني المتمثل في البحث عن منطلقات جديدة [1]. قد تكون بدائية أو لا تكون ولكنها تمثل نوعاً من الهروب إلى المجهول في غياب القيم والدين من بنيان المجتمع الغربي ماذا يقول لنا "كونت" وأتباع الوضعية عن هذه النماذج التي انتشرت ليست على مستوى العوام بل على مستوى الشخصيات السياسية والاقتصادية وأصبح لبعض رؤساء الدول عرّافات هن من أعلام المجتمع[2] فقد كانت زوجة الرئيس الأمريكي "رونالد ريجان" تستشير عرافة أصولية كانت تدعي القدرة على تلقي الرؤى من الله، وكان الهدف من استشارة زوجة "ريجان" لها تهدف معرفة ما يجب فعله من قبل الرئيس حسب

---

(١) جريدة الشرق الأوسط العدد ٦٣٨٢ الأحد ١٩/٥/١٩٩٦م مقال بعنوان اللاعقلانية الفرنسية. باسم الجاسر

(٢) الإسلام والاتجاهات العلمية ص ١١ /١٢

إرادة الله ومشيئته[1] إذاً أين العلم الأمريكي والتقنيات الحديثة؟ أين الجيوش الجرارة من رجال المخابرات، ومستشاري الأمن القومي، وعلماء النفس والاجتماع الذين يحللون ويدرسون ويكتبون التقارير؟ ما بال "ريجان" وغيره لم يلجأ إليهم إنها الفطرة حين توخز الإنسان فيحاول أن يلجأ إلى المجهول حتى ولو كان هذا الغيب خرافات وأساطير وأضغاث أحلام؟ ماذا لو رجعوا إلي الدين الحق المتمثل في الإسلام. الذي يشبع الروح كما يشبع الجسد. والذي يتعامل مع الإنسان كإنسان من مادة وروح يعطي كلا منهما بقَدَرِه فلا طغيان لأحدهما على الآخر ولا إفراط ولا تفريط

لقد أدرك بعض العلماء أنهم ضللوا الناس حين زعموا لهم أنهم يستطيعون تفسيرَ كلِ شئ في الكون بقانون مفهوم. أدركوا أن دعواهم بأن العلم يستطيع أن يفسر المجاهيل كلها لم يكن سوى خرافة، وأن العصر الذهبي للعلم في نظرهم الذي سيطر فيه الإله الجديد فجعل يُثبت ما يدخل في إدراكه، وينفي ما لا يقع في نطاقه هذا العصر كله كان عصر الخرافة الكبرى[2]

هكذا يعترف العلماء التجريبيون -الواحد منهم بعد الآخر- إنهم يسجلون الحيرة والتعجب بالرغم مما وصلوا إليه. فما بال

---

(١) المسيحية والحرب ص ٤٥ للدكتور رفيق حبيب - الناشر دار يافا

(٢) في النفس والمجتمع ص ٤٢ - ٤٣ محمد قطب



المستضعفين من الرجال والنساء الحيارى والضالين تحت دعوى أن العلم قادر على كل شئ ما بالهم لا يرجعون... !!

يقول السير "جيمس جينز" عالم الفلك الذي بدأ حياته ملحداً شاكاً "لقد حاولنا أن نبحث فيما إذا كانت العلوم الحديثة عندها ما تقوله عن مسائل صعبة معينة. ربما كانت إلى الأبد بعيدة عن منال العلم التجريبي ولا نستطيع أن ندعي أننا لمحنا أكثر من بصيص ضعيف من النور، وربما كنا واهمين تماماً في لمح هذا البصيص بالتجربة الموضوعية فإننا ولا شك قد اضطررنا إلى أن نجهد أعيننا إجهاداً عظيماً قبل أن نظفر برؤية شئ ما، ولذا فليس معنى كلامنا أن العلم عنده قول فصل يلقيه بل على العكس ربما كان خير ما نستطيع أن نقوله: إن العلم قد عدل عن إلقاء الأقوال جزافاً كما في الماضي. فإن نهر المعرفة قد تعرج وفي اتجاه سيره مراراً وتكراراً"، وعجز عن إخضاع قضايا الدين والفلسفة لأسلوبه الحسي وإن العلم المادي كلما تقدم في أبحاثه التي تتزايد، وتتضاخم يوماً بعد يوم يرى أن أكثر قضاياه وضوحاً تخفي في طواياها جيشاً عظيماً من الأسرار ومازال هذا شأنه. كلما وصل إلى منطقة من مناطق البحث، وخيل له فيها أنه بلغ الغاية. بدت له مناطق أخرى

بعيدة المدى تتصل في حقيقة وجودها بعالم المعتقد الذي هو عالم الوجدان والإيمان" [1]

هذا الكلام صادر عن أحد أساطين العلم. وهو يقرر في كلامه أن تقدم العلوم يزيد البشرية حاجة إلى الدين أو الأصل أن يكون كذلك. لا كما ذهب أرباب الوضعية ومن على شاكلتهم. ولعل التوغل في العلم ثم الرجوع منه بدون ما كان يتوقع الباحث هو الذي يدفع هؤلاء إلى الدين دفعاً. لأن الدين عنده إجابات عن كثير من الأسئلة التي يعجز عنها العلم.

ولعل رجوع الباحثين إلى الدين بعد توغلهم في العلم يعيد إلى الذاكرة ما كان من شأن سحرة فرعون مع موسى عليه السلام. ذلك أن فرعون جمع كل سحَّار عليم فلما أخرجوا ما تعلموه من السحر وهو نهاية العلم فيه. ثم ألقى موسى عصاه إذا هى تلقف ما يأفكون أيقنوا أن الذي عند موسى ليس من السحر في شئ لأنه لو كان منه لعلموه. ولذلك كانوا صادقين وأعلنوا الإيمان.

يقول سبحانه (**فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم**

---

(١) انظر الدين والفلسفة والعلم ص ٣٧ - ٣٨ محمود أبو الفيض المنوفي - الناشر دار الكتب الحديثة



السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى﴾ [1]

إن الجميع سيعود مرة أخرى إلى الدين لأنه الملاذ وهو اليقين والطمأنينة ولكن أي دين الذي يحقق لإنسان العصر الحديث وما بعده التوازن بين النفس والجسم بين الإنسان والكون بينه وبين المجتمع، هل النصرانية بما آلت إليه؟ كلا هل اليهودية بتعصبها الممقوت وإرهابها وتطرفها؟ كلا هل البوذية الديانة الخالية من فكرة الألوهية؟ كلا إن الذي يحقق ذلك كله هو الإسلام. وهذا ما سنتحدث عنه في الصفحات القادمة إن شاء الله.

---

(١) سورة طه الآية ٧٠ - ٧١ وانظر شرح المواقف ص ٣٥٤



الخاتمة وتشتمل على :

تعقيب أول

الإسلام والعلم

إن أهم ما يميز الإسلام هو جانب الشمولية في تعاليمه ونعني بالشمولية هنا أن الإسلام لا يحدد منطقة لله ومنطقة للإنسان بل الأمر كله لله. فأمر الحياة وعمارة الأرض للإسلام فيها توجيه يتمثل في القصد في الطلب وبذل أقصى الجهد لعمارة الأرض واستخراج خيراتها يقول تعالى ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾[1] ويقول لقارون فيما يحكيه القرآن ﴿**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين**﴾[2]

ومعلوم أن عمارة الأرض واستخراج خيراتها والتمتع بما أودعه الله فيها من كنوز. لا يتم إلا بالعلم والمعرفة اللتان يحث عليهما الإسلام،ويكفي أن نعلم أن أول سورة نزلت على قلب محمد ﷺ بدأت بقول الله تعالى ﴿**إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان**

---

(١) سورة الملك الآية ١٥

(٢) سورة القصص الآية ٧٧

من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علَم بالقلم. علَّم الإنسان ما لم يعلم﴾[1]

بل إن آدم أبو البشرية ما استحق المنزلة العظيمة إلا بالعلم الذي علمه الله إياه يقول سبحانه **﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾**[2]

وجاءت الآيات القرآنية تحث على التدبر، والتعقل، والتعلم، والتذكر مثل قوله تعالى **﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا﴾**[3] وقوله تعالى **﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾**[4] وقوله تعالى **﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾**[5]. وقوله **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾**[6] وقوله **﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾**[7] وقوله **﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾**[8]

وجاءت الآية الكريمة التي تجمع شتى العلوم.الزراعية منها والجيولوجية، وعلم الأجناس البشرية، وعلم الحيوان. ثم تقرر أن

---

(١) سورة العلق الآية ١-٥

(٢) سورة البقرة الآية ٣١

(٣) سورة الأنعام الآية ١١

(٤) سورة يوسف الآية ١٠٥

(٥) سورة يوسف الآية ١٠٤

(٦) سورة الروم الآية ٢١

(٧) سورة الروم الآية ٢٢

(٨) سورة الروم الآية ٢٤

العلماء أشد خشية لله لأنهم يعلمون بعض أسرار الله في خلقه وكونه ومن ثمَّ فهم يتميزون عن غيرهم بالخشية والإجلال لله.

يقول تعالى ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور**﴾[١]

هنا لم يُحدد العِلْمْ بالعِلْمْ الديني فحسب،وإن كان هو أشرف العلوم وأهمها، ولكن أي علم يوصل إلى الخشية من الله. واستكشاف سننه وكونه يحث عليه الإسلام ويرغب فيه الرسول ﷺ.

لأن النفس البشرية السوية تتجاور فيها حب المعرفة، وحب العبادة. لأن الفطرة تتطلع إلى ربها لتعبده، وتتطلع إلى الكون من حولها تحب أن تتعرف عليه،وأدواتها الحس والعقل يقول تعالى ﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ [٢]

غذي الإسلام أدوات المعرفة وأطلق العنان للإنسان للبحث والتنقيب لتحقيق الخلافة في الأرض. بالعلم المؤدي إلى الخشية والإيمان والتسليم لله سبحانه وتعالى.

---

(١) سورة فاطر الآية ٢٨

(٢) سورة النحل الآية ٧٨ وانظر مذاهب فكرية معاصرة ص ٥٠



وقد فهم المسلمون الأوائل آيات القرآن الكريم واستوعبوا إشاراته فانطلقوا يبحثون وينقبون. مظهرين سنن الله في كونه وآياته في سمائه وأرضه، وقدموا للبشرية طرحاً جديداً في العلم يتمثل في منهج البحث العلمي. مخالفين ما كان سائداً عند اليونان من الاهتمام بالعلم النظري التجريدي الفلسفي. إلى العلم التجريبي "وكانت هذه نقلة هائلة في منهج البحث. هى التي أهلت البحث للآفاق الواسعة التي وصل إليها الغرب في القرون الأخيرة"[١] وكان الذي حفز المسلمين للبحث في هذا الاتجاه. ايات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ .

يقول الله تعالى (**وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شئ فصلناه تفصيلا**)[٢]

وسوف نتحدث عن بعض العلوم التي برع فيها المسلمون:

١- علم الفلك

انطلق المسلمون يبدعون في علم الفلك ليس لذات العلم كما يفعل البعض ولكن لأنه يبحث في معرفة السنين والشهور والمواقيت ولأنه من العلوم التي توصل إلى علم التوحيد وتعظم

---

(١) واقعنا المعاصر ص ٩٠

(٢) سورة الإسراء الآية ١٢



الرب سبحانه. يقول أحد رواد علم الفلك في الحضارة الإسلامية وهو "البتّاني" (٢٤٤-٣١٧هـ) "إن من أشرف العلوم منزلة وأسناها مرتبة وأحسنها حلية، وأعلقها بالقلوب وألمعها بالنفوس وأشدها تحديداً للفكر والنظر وتزكية للفهم ورياضة للعقل بعد العلم بما لا يسع الإنسان جهله من شرائع الدين وسننه. علم صناعة النجوم -لما في ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان، وزيادة الليل والنهار ونقصانهما ومواضع النيرين وكسوفهما ومسير الكواكب في استقامتها ورجوعها وتبدل أشكالها ومراتب أخلاقها، وسائر مناسباتها إلى ما يدرك ذلك مَن أنعم النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كنه عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته ولطيف صنعه"[١] هنا البحث من أجل مقاصد شرعية لتحديد أوائل الشهور التي ترتبط بها عبادات كشهر رمضان وأشهر الحج، ولتحديد مواقيت الصلاة. ثم لمعرفة عظمة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته.

ولم يكتف علماء الإسلام بالاشتغال بعلم الفلك وإنما نقدوا النظريات التي توصل إليها علم الإغريق[٢] .

---

(١) الزيج الصابئ للبتاني ص ٦ نقلاً عن النهضة الأوربية ص ١٠٤

(٢) انظر نماذج متعددة لنقد العلماء المسلمين . لنظريات الإغريق . في كتاب النهضة الأوربية دراسة نقدية ص ١١٠- ١١٤

وكانت البحوث الفلكية التي قام بها المسلمون تعود بالفائدة العلمية عليهم إذ كان لابد للمسلمين خاصة بعد الفتوحات أن يحددوا اتجاههم عبر الصحراء، ووسط أمواج البحار، وحينما راحوا يمخرون عُباب البحار والمحيطات ويجوبون الشواطئ كان لابد لهم كي يجدوا موقع سفنهم من معارف عميقة وأدوات للقياس كالاسطرلاب الذي طوروه وعدلوه فاستطاعوا به قياس ارتفاع الشمس والقمر وبعض النجوم وسائر الكواكب وكذا الأمر فيما يخص البوصلة التي اخترعوها ونقلوها إلى الصينيين فيما بعد. أما التوجه إلى "مكة" للصلاة أياً كان المكان الذي يقيم فيه الإنسان فيقتضي علماً دقيقاً للتوجه في "الحيز المكاني" ،وأما وجوب توقيت دقيق للصلوات الخمس اليومية فيتطلب معرفة موقع الشمس ساعة شروقها وغروبها وهذا ما يلزم كذلك لمعرفة توقيت الصيام والإفطار في رمضان وتحديد يوم العيد انطلاقاً من موقع القمر، وقد بلغت الدقة في البحوث الفلكية التي قام بها المسلمون دقة متناهية. فقد قام الفلكي الأمير "أولنغ بيك" حفيد "تيمور لنك" بقياس السنة الشمسية وحسابها بخطأ (١٤) ثانية فقط بالقياس إلى حساباتنا الحالية[١]

---

(١) ما يعد به الإسلام ص ١٢٨/١٢٩ روجيه جارودي



٢- الرياضيات

كان للمسلمين السبق في البحث في الرياضيات خاصة علم الجبر الذي اخترعه الخوارزمي لحل مسائل الميراث المتضمنة في علم الفرائض. وكان للعرب الفضل في وصول الأرقام العربية إلى أوربا وكان الصفر الذي عرفه المسلمون عن طريق الهند إحداث ثورة في الرياضيات. يذكر "روجيه جارودي" أن وصول مايسمى بالأرقام العربية في الغرب وبالأرقام الهندية عند العرب إلى أوربا عن طريق "الخوارزمي" ويتضمن كتاب "سيدهانت" الهندي الذي قُدِمَ إلى الخليفة المأمون والذي أحدث ثورة في الرياضيات في طريقة الترقيم العشري تقوم على تسعة أرقام مضافاً إليها الصفر تسمح بالتعبير عن أي عدد من الأعداد. ثم إن "الخوارزمي" هو الذي لخص هذه الطريقة ووضع أسسها لتنتقل بعد ذلك إلى أوربا من جامعة قرطبة على يد طالب راهب يُدعى "جربرت" الذي أصبح فيما بعد البابا "سلفستر الثاني" هذه الطريقة أحدثت انقلاباً في الرياضيات، وقد انتقلت إلى أوربا كذلك بطريق صقلية. كتب العالم "بوناش" المولود في "بيزا" عام (١١٨٠م) يقول "إن الأرقام الهندية التسعة (1-2-3-4-5-6-7-8-9) مضافاً إليها علامة الصفر (0) يمكن أن نشكل منها ونكتب ما شئنا من أعداد" ويلاحظ أن الصفر المرموز إليه بحلقة فارغة (0) يعني عند الهنود العدم أو الفراغ وقد ترجمه

العرب بمعناه الدقيق الأمين فسموه (الصفر) الذي يعني الخلو أو الفراغ في العربية[1]

يقول "داربر" :"ومن عادة العرب أن يراقبوا ويمتحنوا وقد أحبوا الهندسة والعلوم الرياضية ومما تجدر الإشارة إليه أنهم لم يستندوا فيما كتبوه في الميكانيكيات، والسائلات والبصريات على مجرد النظر بل اعتمدوا على المراقبة والامتحان بما كان لديهم من آلات[2] ونستطيع أن نقول إن الذين اخترعوا بالأمس في ظل الإسلام لديهم القدرة على أن يتفوقوا مرة أخرى في كنف هذا الدين إذا هم استمسكوا به، واستحضروا روح تعاليمه.

٣- العلوم الطبية

الطب من العلوم التي يحتاج إليها الإنسان في معاشه وهى تعني في أبسط معانيها معالجة المرضى والمتألمين، والمصابين، ومن هنا كانت مهنة الطب مهنة إنسانية بالدرجة الأولى[3]. وقد نشط بعض المسلمين للبحث في العلوم الطبية، وممارسة علاج المرضى بدقة متناهية، وهذا يدل على أن المسلمين الأوائل لم يقفوا مكتوفي الأيدي مكبلي العقول تجاه بعض العلوم التي تُعد جديدة عليهم. فقد انطلقوا يستفيدون من غيرهم من الأمم وما هى إلا فترة

---

(١) انظر ما يعد به الإسلام ص ١٢٥ روجيه جارودي - وانظر ص ١٢٦/١٢٧

(٢) الإسلام والحضارة العربية ج٣ ص ١٢٨ محمد كرد علي لجنة التأليف والترجمة القاهرة سنة(١٩٦٨م)

(٣) انظر في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص ٧ د/عامر النجار - الناشر دار المعارف

وجيزة حتى استوعبوا ما حولهم. ثم انطلقوا يبحثون ويجربون ويعالجون وأمكن أن يضيفوا جديداً في الطب والعلاج، وإن ما استحدثه العرب من علاجات مختلفة للأمراض، وما استخدموه من أدوات جراحية وما كشفوا عنه من أسباب الأمراض ليدلنا دلالة واضحة على عمق وأصالة الطب في الدولة الإسلامية، وقد نشأت مدارس للطب في العالم الإسلامي كان فيها التدريس على منهجين. منهج نظري في المدارس الطبية، ومنهج عملي للتدريب والتمرين يجتمع فيه الطلاب حول رئيس الأطباء فيرون كيف يفحص المرضى، وما يصف لهم من العلاج.وإذا أجاز الطلاب مدة الدراسة تقدموا للإمتحان ثم أقسموا اليمين "عهد أبقراط" ونالوا الشهادة ثم إذا هم بدأوا ممارسة التطبيب كانوا دائماً تحت رقابة الدولة[1]

وقد نبغ كثير من الأطباء في الدولة الإسلامية منهم على سبيل المثال:

١- أبوبكر محمد بن زكريا الرازي. الذي يُعَدُّ من أعظم الأطباءالمسلمين وقد تُرجمت أكثر كتب الرازي إلى اللغة اللاتينية، وطُبعت عدة مرات في البندقية سنة ١٥٠٨م، وفي باريس ١٥٢٨م، وأُعيد طبع كتابه الجدري، والحصبة سنة ١٧٤٥م، وظل مرجعاً في جامعة "لوفان" حتى القرن السابع عشر الميلادي وتذكر المستشرقة

---

(١) انظر تاريخ العلوم عند العرب د/عمر فروخ ص ٢٧٦

الألمانية "زيغرد هونكة" قبل ستمائة عام،كان [illegible]
أصغر مكتبة في العالم لاتحتوي إلا على مؤلف واحد. هو كتاب الحاوي في الطب "للرازي". وكان هذا الأثر العلمي الضخم يضم كل المعارف الطبية منذ أيام الإغريق حتى عام ٩٢٥م وظل المرجع الأساس في أوربا لمدة تزيد على الأربعمائة عام بعد ذلك التاريخ دون أن يزاحمه مزاحم أو تؤثر فيه أو في مكانته مخطوطة من المخطوطات الهزيلة التي دأب على صياغتها كهنة الأديرة قاطبة وهو العمل الجبار الذي خطته يد عربي قدير. ولقد اعترف اليونان بقيمة هذا الكنْز العظيم وبفضل صاحبه عليهم و على الطب إجمالاً فأقاموا له نُصُباً في وسط القاعة الكبيرة في مدرسة الطب لديهم، وعلقوا صورته، وصورة عربي آخر هو "ابن سينا" في قاعة أخرى كبيرة في شارع "سان جيرمان" حتى إذا ما تجمع فيه طلاب الطب وقعت أبصارهم عليه ورجعوا بذاكرتهم للوراء يسترجعون تاريخها"[1] وهذا من باب وشهد شاهد من أهلها

٢- ابن النفيس ولد سنة ٦٠٧هـ وتوفي ٦٨٧هـ وكان لهذا العالم في الطب اكتشافات انتفعت بها أوروبا -في مدارسها-فهو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يعرفها الأروبيون بثلاث مائة سنة [2] ويُعد ابن النفيس أول عربي عرف وظائف

---

(١) انظر شمس العرب [illegible] على العرب [illegible]

(٢) نفسه ص [illegible]

الرئتين والأوعية الدموية وهو الذي مهد الطريق للطبيب الإنجليزي "هارفي" كي يكتشف الدورة الدموية الكبرى، وهو أول من صحح الأخطاء الشائعة في حركة الدم وكتب أول وصف صحيح لحركة الدم في الجسم، وهو من أبرز من عرفوا علم وظائف الأعضاء وصحح بعض آراء "جالينوس" و"ابن سينا" في حركة الدم(١) وهو حين يكتب يبدأ باسم الله وحمده والثناء عليه ويسأل الله التيسير. بينما نجد "دارون" يكتب في موضوع من طبيعته أن يثير الوجدان البشري ويبعث القلب خاشعاً وهو علم الحياة، وخروج الحي من الميت، وخروج الميت من الحي. فلا يذكر اسم الله مرة واحدة بل يقول إن الطبيعة تَخْلُقُ كُلَ شئ ولاحد لقدرتها على الخلق" إنه الفارق بين الهُدَىَ والضلال وهذا. هو الفارق بين العلوم حين يشتغل بها المؤمنون. والعلوم حين يشتغل بها الماديون.

ونسجل أنه كلما تقدم علماء الإسلام في الطب أو الفلك أو الجبر أو الهندسة كلما ازدادو قرباً من الله. على عكس أرباب الحضارة الأوربية. كلما تقدموا في العلم التجريبي إذا بهم يُعرضون عن الله. ويصل بهم الأمر أن يتحدوا الخالق سبحانه في أسماء

---

(١) انظر للأهمية كتاب في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية ص ١٥٨ والكتاب حافل بما يعتز به المسلم في تقدم المسلمين في علوم الطب.جزى الله مؤلفه الدكتور عامر النجار خير الجزاء على جهوده المتميزة في هذا الشأن



مخترعاتهم مثل تسمية بعض المخترعات بالمتحدي. أو الذي يستغنى بنفسه عن غيره.

إننا حين نذكر هذه النماذج نؤكد أن الإسلام هو الذي دفع هذه العقول للانطلاق للبحث والتجربة. وأنه كما يأمر أتباعه بالصلاة والزكاة وسائر فروض الإسلام يأمرهم بالبحث والنظر والتفكير والتدبر، وهذه الأمور كلها يعدها الإسلام عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله إذا أخلص عمله لله. وقصد بتلك الأعمال تحقيق الخلافة عن الله في الأرض. واكتشاف سننه في كونه.

لأن العلوم الدينية والعلوم التجريبية ليستا متعارضتين حيث يعتقد البعض أن الأولى خاصة بالنواحي الروحية وبالآخرة، والثانية خاصة بالنواحي المادية وبالدنيا، وهذا وإن كان صحيحاً إلى حد ما إلا أن المعرفة أو العلوم الدينية تنصب على شئون الحياة في الإسلام بنفس القدر الذي تنصب به على شئون الآخرة كما أن العلوم التجريبية في الإسلام عون للإنسان المسلم على عبادة ربه وابتغاء الدار الآخرة بما يحصله منها من نتائج فليس ثمة علوم دينية، وعلوم دنيوية[1] ولكن العلم وطلبه فريضة. ليست واجبة الأداء فحسب. ولكنها في المصطلح الإسلامي عبادة.

ولنتأمل قول الله تعالى **﴿وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم**

---

(١) الإسلام والعلم التجريبي ص١٠٠ وانظر للضرورة، إحياء علوم الدين للغزالي ج١ ص١٦ .



لا تعلمونهم الله يعلمهم» [1] فهل يستطيع المسلمون الآن تنفيذ هذه الآية بغير علم الرياضيات والفيزياء والكيمياء والميكانيكا وعشرات غيرها من العلوم؟ [2] ونقرأ قوله تعالى **«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز»**[3]

فنوقن أن الله يطلب من عباده المؤمنين أن يأخذوا بالقوة المتمثلة في الحديد -لنصرة الله ورسله- وهذا ما نتمنى من المسلمين أن يقوموا به.

---

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠

(٢) واقعنا المعاصر ص ٩٣

(٣) سورة الحديد الآية ٢٥

تعقيب ثان

الدين الحق الذي ينقذ البشرية هو الإسلام

بعد أن استعرضنا ما آلت إليه البشرية بعد سيطرة العلم التجريبي والإحباط الشديد الذي أحاط بالناس من جرّاء بُعدهم عن الدين. والصيحات العالية التي خرجت مدوية من هنا وهناك. تعلن عجز العلم عن تفسير كثير من الأمور وتبين الحاجة إلى الدين. ولكن نتساءل -أي دين- يحقق للإنسان المعاصر الطمأنينة والتوازن بين النفس والجسم بين الإنسان والكون وبني جنسه من البشر بل بينه وبين الكائنات من حوله؟ هل الأديان الكتابية بما آلت إليه من تحريف، وتعصب ممقوت؟ كلا. لا شئ من هذا كله يصلح لكي يكون الدين الذي يحقق للبشرية أمنها واستقرارها في يومها وغدها ومستقبلها. إن الدين المختار من خالق البشر هو الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ . كخاتم للأنبياء والرسل، وخاتم للرسالات والشرائع. وناسخ لها في الوقت ذاته لأنه الدين الذي يحمل في تعاليمه المتمثلة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة ما يُصْلِحْ الإنسان إلى أن تقوم الساعة، ولذلك حتماً ستعودُ البشرية إلى دين محمد ﷺ سواء بالدخول فيه والإيمان بأركانه أو بأخذ تعاليمه وتطبيقها في مجتمعاتهم مصداقاً لقول الله تعالى **﴿ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾** [1]

---

(١) سورة الصف الآية ٩

وليس كلامنا خالياً من الحقائق كلا بل إن الحقائق تؤكده والحجج تدعمه والبراهين تدلل عليه. ولنا عدة حقائق نقدمها كبرهان ودليل على أن الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ هو المنقذ للبشرية مما تَرَدَتْ إليه إن كان فيها من يأخذ بالعلم ويحتكم إلى العقل السليم -إما إذا أعرضوا- فهذا هو الاستكبار وهو الغي والضلال. هذه الحقائق تتمثل في بعض آيات القرآن الكريم. يقول الله تعالى**﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾** (١)

إن العَالَمْ في أمس الحاجة إلى تصور صحيح للألوهية ولن تجد البشرية هذا التصور إلا في كتاب الإسلام الوحيد الباقي بلا تحريف ولا تبديل . القرآن الكريم، وأيضاً السنة الصحيحة . وقد

(١) سورة الأنعام الآية ١٥١-١٥٣

تضمنت هذه الآية النهى عن الإشراك بالله. وجاءت آيات أخرى لتتحدث عن الوحدانية التي يطلبها الإسلام من الخلق جميعاً.

وقد تحدثت هذه الآية الجامعة عن أسس ثلاثة:

الأساس الأول: ما يتعلق بعقيدة الفرد فحرم عليه الشرك بالله وهذا أول أساس ينبني عليه صلاح العالم وسعادة البشرية.

الأساس الثاني: ما يتصل بسلوك الأفراد من الناحية الأخلاقية سواء ما يتعلق بذوي قرابته أو المجتمع الذي يعيش فيه.

الأساس الثالث: ما يتصل بالمعاملات بين الأفراد في الدولة الواحدة أو بين الدول بعضها والبعض الآخر . من ناحية الوفاء بالعهود وأدائها.

سوف نتكلم عن كل أساس من تلك الأسس بكلمة موجزة:-

أولاً: عقيدة التوحيد

في وسط هذا الكم الهائل من التيه والضياع في عالم الأفكار والمعتقدات. يظهر الإسلام كدين متفرد يدعو إلى التوحيد الخالص الذي جاء به الأنبياء قبل محمد ﷺ يقول سبحانه **﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾** (١)

ويقول عز وجل **﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾** (٢)

ويقول سبحانه **﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾**(٣)

هذه بعض الآيات التي يقرر فيها رب العالمين أن التوحيد هو دعوة الأنبياء قبل محمد ﷺ .

---

(١) سورةالأنبياء الآية ٢٥

(٢) سورة الزخرف الآية ٤٥

(٣) سورة النحل الآية ٣٦

أما صاحب الدين الخاتم فإن دعوته من بدايتها إلى نهايتها كانت من أجل التوحيد.

يقول تعالى **(يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون)** (١)

ويقول تعالى **(وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)** (٢)

وهذه الآية تمثل مع غيرها من الآيات مثل قوله تعالى **(الله لا إله إلا هو الحي القيوم)** (٣)

وقوله تعالى **(لا إله إلا هو العزيز الحكيم)** (٤)

وقوله تعالى **(وما من إله إلا الله)** (٥)

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١

(٢) سورة البقرة الآية ١٦٣-١٦٤

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٥

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨

(٥) سورة آل عمران الآية ٦٢

أقول تمثل أسلوب الاستثناء التام المنفي وهذه الصيغة ترد كثيراً فيما يقرب من تسع وخمسين موضعاً تتحدث عن نفي كل ألوهية لغيره وتثبت الألوهية له وحده سبحانه وتعالى(١)

أما السورة الفذة الفريدة التي تثبت لله الو حدانية وتنفي عنه الشريك وتنزهه عن الصاحبة والولد. فهى سورة الإخلاص يقول سبحانه وتعالى **﴿قل هو الله أحد الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾** (٢)

فقد نفت هذه السورة على قلة ألفاظها الكثرة والعدد، والقلة والنقص والعلة والمعلولية، والشبيه والنظير (٣)

وسورة الإخلاص لم يصح عن النبي ﷺ في فضل سورة من القرآن مثلما صح في فضلها وعليها اعتماد الأئمة في التوحيد(٤)

إن عقيدة التوحيد التي جاء بها محمد ﷺ . تحرر الإنسان من أن يكون عبداً لآلهة هو الذي صنعها، وترتفع به من أن يكون عبداً لإنسان مثله. يحلل له أو يحرم عليه. وتنأى به عن أن يكون عبداً لحيوان أو جماد لا ينفع ولا يضر. وهى في الوقت ذاته (أي عقيدة التوحيد) تَرُدَ الأمر كله لله فالكون بما فيه ومن فيه ملك لله خالقه. فلا يُطلب الرزق إلا منه، ولا الاستعانه إلا به ولا التوكل إلا عليه.

---

(١) انظر الألوهية في الفكر الإسلامي ص ١٢٦

(٢) سورة الإخلاص الآية ١ - ٤

(٣) انظر شرح البيجوري على الجوهرة ص٦٩

(٤) توحيد الألوهية من مجموع الفتاوى ج٢ ص ٤٣٨ - ٤٣٩

إن التوحيد هو الحرية في أسمى معانيها.لأنه ينشئ في القلب والعقل والضمير حالة من الانضباط والإلتزام. لاتتأرجح معها العقيدة، ولا تهتز معها القيم ولا يتميع فيها التصور والسلوك. ندرك هذا حين نوازن بين المسلم الذي يتعامل مع ربه الواحد الخالق الرازق القادر القاهر المدبر المتصرف،وبين غيره من أرباب الديانات الوضعية[1] وأتباع المذاهب الفكرية. بل وأرباب الديانات الكتابية حيث أضحت هذه الديانات. لا تلبي حاجات البشرية ويكفي القارئ أن يستعرض بعض أفكار الديانات الوضعية المعاصرة مثل الهندوسية أو البوذية ليرى كيف تختذل هذه الديانات كرامة الإنسان وتجعله يقدس البقرة ويحرم ذبحها، ويقدس الثعابين والتماسيح وغيرها ويعتبرون بعض الأنهار عندهم مقدساً وأن الانغماس فيها يطهر الذنوب[2] كما هو مقررعند الهندوس.أما البوذية فإنها يُطْلَقُ عليها ديانة مجازاً لأنها تخلو من فكرة الألوهية أصلاً، وإن كان أتباع بوذا قد قدسوه فيما بعد فقد نحتوا التماثيل إعجاباً به، وتقديساً له. ثم دعاهم هذا الإعجاب به لمنحه صفات الألوهية واتخاذه إلهاً متجسداً[3]

---

(١) انظر خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢٢٧/٢٢٨

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ج٢ ص ١٦٣

(٣) انظر الهند القديمة ص ١٥٢ وأديان الهند الكبرى ص ١٧٦ - ١٨٠

أما الأديان الكتابية مثل اليهودية فإن تصورهم للألوهية تصور مُشوش بعد التحريف والتبديل الذي أدخله الأحبار على تعاليم موسى عليه السلام. ويمتلئ العهد القديم الذي بأيدي اليهود بأوصاف لا تليق بذات الله فهو يأكل ويشرب[1] ويعمل ويتعب ويستريح[2] ،وينسى ويندم ويتردد وينطلي عليه الحيل [3] وأنه متردد[4] فهل من االعقل والمنطق أن يتعبد الإنسان لإله هذه صفاته؟ هذا فضلاً عن التعصب اليهودي للجنس الإسرائيلي. والنظرة باحتقار وتعالي لكل ما عداه.

أما النصرانية فإن التثليث من العقائد الأساسية عندهم ويستدلون عليه بنصوص من الأناجيل[5] وأعمال الرسل وقد حاول النصارى البرهنة عليه بأدلة عقلية لا مجال لعرضها[6]

وقد رفض كثير من علماء الغرب ما آلت إليه النصرانية من تحريف وتبديل خاصة في مجال التثليث والصلب والفداء[7]

---

(١) سفر التكوين ١٧/١-٣، ١/٨-٢

(٢) سفر الخروج ٢٠/٨ -١١ وسفر التثنية ٥-١٢/١٥ والتكوين ٢/١-٢

(٣) سفر التكوين الإصحاح ٢٧

(٤) انظر سفر التكوين الإصحاح ٨

(٥) انظر إنجيل متى ٢٨/١٩ ويوحنا ١/١

(٦) انظر التثليث والتوحيد للأنبا غريغريوس وانظر الدر الثمين في إيضاح الدين ص ٢٠/١١

(٧) انظر على سبيل المثال المسيحيه نشأتها وتطورها فالكتاب من بدايته إلى نهايته تصوير دقيق لدخول الوثنية إلى النصرانية وسيطرتها فيما بعد بدلاً من تعاليم المسيح عليه السلام والحواريون انظر بحثنا . نقض دعوى عالمية النصرانية . المبحث الخاص بدخول الوثنية إلى النصرانية .

لكل هذه الأمور وغيرها نستطيع أن نقول بدون تجاوز للحقيقة والواقع أن التوحيد هو الخاصية البارزة في الدين الذي جاء به محمد ﷺ بحيث أنه لم يبق في الأرض كلها تصور ديني صحيح إلا التصور الذي جاء به محمد ﷺ ، حيث حفظ الله أصوله فم تمتد إليه يد التحريف ومن ثمَّ أصبح التوحيد خاصية من خصائص هذا الدين[1]

ولا يقولن أحدٌ إذا كانت عقيدة التوحيد الخالص هى الباقية في الدين الإسلامي الذي جاء به محمد ﷺ دون غيره من الأديان الموجودة الآن. فما شأن الذين ينتسبون إلى الإسلام اليوم في ذيل الأمم؟ ونبادر فنقول فرق بين المبدأ والتطبيق للمبدأ. فالمبدأ حق في ذاته يؤتي ثماره لمن يأخذ به ويعمل بتوجيهاته، ولأن سنن الله لا تحابي أحداً. فحين انحرف المسلمون عن العقيدة الصافية واتبعوا سَنَنَ من قبلهم نزع الله منهم القيادة والريادة. ومن ثمَّ فإن الوضع الذي يعيشه المسلمون الآن.دليل على أن الإسلام هو الحق وأن التمسك به هو طوق النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة. أما حين تخلى المسلمون عن عقيدتهم وشريعتهم فإن الهوان وتكالب الأمم عليهم هو النتيجة الحتمية واللازمة لسلوكهم. وصدق الله العظيم إذ يقول **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**[2]

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢١٢/٢١٣

(٢) سورة الرعد الآية ١١

ولذلك نقرر أن أصحاب عقيدة التوحيد حين يفيئون إلى منهج الله الذي منّ به عليهم، وينادون به يملكون أن يقدموا للبشرية الشئ الكثير. الذي تفتقده جميع المناهج والأنظمة والأوضاع في الأرض كلها بلا استثناء، ومن ثمّ يكون لهم اليوم وغداً دور جديد في عالم اليوم يتمثل في القيادة الراشدة للتيارات العالمية الإنسانية ويمنحهم سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني كالدور الذي مُنح للعرب الأميين في الجزيرة العربية يوم أن تمسكوا بالإسلام.

إن أصحاب عقيدة التوحيد لا يملكون أن يقدموا للبشرية أمجاداً علمية ولا فتوحات حضارية تبلغ من ضخامتها أن تتفوق تفوقاً ساحقاً على كل ما لدى البشرية منها، ولكنهم يملكون أن يقدموا للبشرية شيئاً آخر أعظم من كل الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية إنهم يقدمون تحرير الإنسان بمنهج يقوم على تكريم الإنسان وعلى إطلاق يده وعقله وضميره وروحه من كل عبودية لما سوى الله ويوم أن يفعل ذلك أصحاب عقيدة التوحيد سوف تنطلق كل الطاقات لتحقيق الخلافة عن الله في أرضه بعزة وكرامة كما أراد الخالق للإنسان أن يكون. وحين يتم ذلك من الممكن حينئذ أن يقدم الإنسان المحرر من العبودية لغير الله. الأمجاد العلمية، والفتوحات الحضارية. ليستخدمها في طاعة الله ويسخرها في عبادته. فلا يكون عبداً للآلة ولا عبداً للبشر على السواء[1]

---

(١) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ص ٢٣٤

إن على البشرية اليوم كما تَجِدُ للحصول على الطعام والشراب وضرورات الحياة وكمالياتها. أن تَجِدَ للبحث عن الدين الحق الذي يقدم التصور الصحيح عن الله ورسله وعالم الغيب كله. الدين الذي يقدم المنهج الصالح للحياة بحيث تتوازن متطلبات الروح مع ضرورات الجسد، الدين الوسط الذي لا يهمل جانب على حساب جانب آخر بل الكل يأخذ حقه بحساب دقيق وميزان عادل. ولن تجد البشرية ذلك إلا في الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ .

ثانياً: الجانب الأخلاقي

هذا الجانب يأتي بعد التوحيد مباشرة وهو منبثق عنه -لأن الذي يوحد الله ويعرفه حق المعرفة- تظهر آثار الوحدانية على سلوكه مع ذوي قرابته وبين سائر أفراد المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان.

لقد أوصى الله الإنسان بالإحسان إلى الوالدين. والناظر فيما وصل إليه حال المجتمع المعاصر. من ناحية الجفاء والعقوق الذي أصبح سمة للإنسان المعاصر. يجد أن الإسلام يأتي ليعيد التوازن إلى البشرية برده إلى الإحسان لمن كان سبباً في وجوده. إن الذي يشاهد الآباء والأمهات الذين يعيشون بلا عائل ولا موئل مما يثير الأسى. يدرك نداء القرآن وبالوالدين إحسانا كتعليم أخلاقي رفيع في وسط هذا الكم الهائل من الماديات -إنه يقول للإنسان إن

عليك واجبات وتكاليف تجاه الوالدين- وكلمة الإحسان كلمة نَدِيَّةٌ رطبة تبدد جفاء الحضارة المعاصرة. وهى تعني عطاء أكثر في مقابل أقل. أو في غير مقابل أصلاً، وهو تعبير عن إنسانية الإنسان[1] كما ينبغي أن يكون الإنسان.

وتضمنت آية سورة الأنعام النهي عن قتل الأولاد. أياً كان السبب،أما التعليل بخشية الفقر فقد صرح به القرأن لأنه كان العلة الشائعة لدى العرب وقت مجئ الإسلام،وليس لأن النهي مرتبط به وحده وإلا فتجنب قتل الأولاد مطلوب على الإطلاق بعموم قوله تعالى ﴿ **ولا تقتلوا النفس الي حرم الله إلا بالحق**﴾[2]

وهذه الآيات كما خاطبت القدامى تخاطب المعاصرين الآن -الذين يعملون على إبادة الجنس البشري بتحديد النسل خشية الفقر أو حرصاً على عدم تحمل المسؤلية تجاه الأسرة- وحجتهم الاستمتاع بالحياة،وهذا شائع الآن في الغرب. وقد تسربت بعض هذه الأفكار للأسف الشديد إلى المجتمع الإسلامي.

ثم تأتي التوجيهات القرآنية بتجنب اقتراف الفواحش ظاهرها وباطنها خَفَيّهاً وظاهرها. إن العالم الآن يئن من الفواحش وهى نذير بطش وفتك عن طريق الأمراض التي تخلفها تلك الفواحش فضلاً عن عقاب الله. وللأسف الشديد تُظْهِرُ العِلَلْ وتنتشر

---

(١) الفكر الإسلامي في المجتمع المعاصر ص٤١٦

(٢) سورة الأنعام الآية ١٥١ وانظر الفكر الإسلامي الحديث ص ٢٥٤/٢٥٥

الأمراض وبدلاً من النهي عن اقتراف الفواحش نرى سدنة النظام العالمي الجديد يوصون رعاياهم بأخذ الاحتياطات اللازمة. يأتي نداء القرآن الكريم للبشرية كطوق للنجاة من الغرق المحتم. ولكن هل من مجيب؟ وصدق الله العظيم إذ يقول **﴿ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر﴾**(١)

ثم تضيف الآية النهي عن قتل النفس بغير حق. والنهي هنا لا يتناول الأفراد فحسب بل يتناول الدول والمجتمعات. ويأتي التأكيد بعد النهي عن القتل﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون**﴾(٢)

من الذي يحقق السلام والأمن للأفراد والمجتمعات سوى الإسلام لكلمة الله الأخيرة لمحمد ﷺ لدعوة الناس كافة؟

ماذا فعل العالم المتحضر الذي تسوده الديانات الكتابية أو الديانات الوضعية مع المجاذر البشرية، ومع التفجيرات النووية ومع التجويع حتى الموت؟ إن عالم اليوم يملك ما يوازي مليون قنبلة من مثل قنبلة هيروشيما (أي ما يعادل خمسة أطنان من المتفجرات التقليدية على رأس كل مواطن . على هذا الكوكب)(٣) يأتي النداء القرآني **﴿ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق﴾** ليبدد ذلك الخطر الداهم الذي يهدد البشرية من جانب ثُلّة لا عقل لها ولا

---

(١) سورة القمر الآية ٣٦

(٢) سورة الأنعام الآية١٥١

(٣) ما يعد به الإسلام روجيه جارودي ١١٥

دين ولا قلب. وإن كانت تلك الآلات موجودة في أجسادهم إلا أنهم عطلوها عن العمل -من أجل أمجاد زائفة. وهذا شأن الغرب المعاصر- صاحب التكنولوجيا والأقمار الصناعية.

ثالثاً: ما يتعلق بالمعاملات بين الأفراد والأمم.

إن آية سورة الأنعام وغيرها من الآيات تأمر بعدم مساس. مال اليتيم وهو ذلك الضعيف في صورة من صور الضعف الإنساني. إنه ذلك اليتيم المنتشر في أرجاء العالم. يتسول وتستغله عصابات الإجرام ويُتاجَر بأعضائه البشرية لصالح الأقوياء. لا أحد يأخذ له حقه سوى الإسلام.

وتأمر الآية أيضاً. بالوفاء في الكيل والميزان: أي بتحقيق التعادل في التبادل بين الناس. إنها تبدد الظلم والجور والاستغلال الذي يمارس من الدول الغنية المصدرة للدول الفقيرة المستوردة. الذي يُفضي إلى أبشع صور الظلم انتشاراً -حين تسلب الموارد لصالح مجموعة قليلة من البشر- ضد الغالبية العظمى من العالم[1]

أما قوله تعالى ﴿وإذا قلتم فاعدلوا﴾ يالهذا القرآن من شفاء للناس. إن الآية تأمر بالقضاء بالعدل والتمسك به مهما كانت عوامل الضغط على الانصراف عنه ولك أيها القارئ أن ترى نموذج الحيف والجور والظلم والعدوان ظاهراً للعيان في أي مشكلة

(1) انظر ما يعد به الإسلام ص ١١٣/١١٤

يكون الطرف فيها المسلمون، وما قضية "فلسطين" أو "البوسنة" أو "كسوفا" أو "كشمير" عنا ببعيد في الكيل بعدة مكاييل في الأمر الواحد -وها هي قرارات الأمم المتحدة تطبق على البعض بكل صرامة وتشدد- وتغفل تماماً وكأنها لم تكن عند البعض الآخر. والمثال على ذلك إسرائيل وغيرها من دول العالم.

يأتي القرآن للعالم كله آمراً ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾[1] أياً كانت القرابة والمصلحة ومها ترتبت عليها . أين نجد هذه التعاليم وعند من تطبق؟ إنها لا توجد إلا في الإسلام ولا تطبق إلا عند المتمسكين به.

ثم يأتي الأمر بالوفاء بالعهد والالتزام به. بشرط أن يكون ذلك العهد على الخير وبالمعروف أما إذا كان على الشر أو المنكر. فهو وعد مهدر وعهد باطل.

يقول أستاذنا الدكتور البهي في تعليقه على آية سورة الأنعام: فهذه الآية وحدها لم تقف بالإسلام عند حد الدين كما يراه الغربيون وهو الذي يعني العقيدة في الإله. ولم تقف عند حد الوصايا الأخلاقية الفردية فقط بل تجاوزت هذين الجانبين إلى جانب التعامل في دائرة الأموال. والتبادل التجاري، وفي دائرة القضاء، وفي دائرة الوفاء بالعهد والالتزام به. والآية فوق أنها

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٥٢

تحدد العقيدة والوصايا الخلقية الفردية تقرر مبدأ التعامل ومبدأ القضاء، ومبدأ الدولة نفسها وصلتها بالأفراد. [١]

وماذا يحتاج العالم الآن أكثر من هذا؟ إن البشرية لا مناص سوف تعود إلى الدين الذي يحقق السعادة والطمأنينة لها ليس في الدنيا فقط وإنما يحقق الأهم وهو الأمن في الحياة الآتية.

إنه وكما يقول الدكتور "رشدي فكار" : إن الإسلام لن يقول لأبناء القرن الحادي والعشرين سأعطيكم طائرة أسرع أو سيارة أفضل أو قطاراً أكثر راحة ورفاهية أو ثلاجة أجمل وأكبر أو طرقاً أنعم وأنظف لا ولكن سيقول لهم: سأعطيكم إنساناً أكثر توازناً واعتدالاً أكثر براً وإحساناً وعدالة للآخرين إنساناً يرتبط بمبادئه ويهاب ويخشى خالقه. الإنسان الذي يخدم الإنسان ويعمل لإسعاده لا لارتقاء ناطحات السحاب ورصف الشوارع، واستنزاف كل الخيرات في إطار التحايل والمكر والدهاء والكيد وبمعنى آخر صياغة وبناء الإنسان ليبني كل ما دُمر"[٢] نعم إن هذا أعظم ما يقدمه الإسلام للبشرية بعد أن وصلت إلى ما وصلت إليه الحضارة المادية المعاصرة،وفضلاً عن ذلك كله يقدم الإسلام الحضارة في ثوب جديد يخترع فيه الإنسان ويبتكر ويستخرج الخيرات. وهو مع

---

(١) انظر الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٢٥٥/٢٥٦

(٢) حوار متواصل ص ٥٤ د/رشدي فكار نقلاً عن الصحوة الإسلامية في عيون مختلفة ص٨٩/٩٠ د/ نعمان السامرائي الناشر دار المنارة.

ذلك عبد لله لا يتعالى ولا يغتر وهذا فرق كبير وبون شاسع بين الحضارة حين يملكها غير المؤمن والحضارة حين يملكها المؤمن.

إن البشرية في أمس الحاجة إلى الإسلام في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الإنسان. الضمير في حاجة إلى الاسترواح والثقة والاطمئنان، والعقل الإنساني يحتاج إلى الانطلاق والنشاط للنفع لا للضرر للإصلاح لا للإفساد.

والأسرة في حاجة إلى الحماية والرعاية ولم الشمل والتكافل.

والبشرية بأسرها في حاجة إلى التعاون لا التفرق والتعارف لا التشاجر، والسلام لا الحرب.

إن شجرة الحضارة البشرية تهتز وتترنح اليوم كما كانت تهتز وتترنح قبيل مولد محمد ﷺ. الرسول الذي وحد العالم جميعه فما أشد حاجة البشرية إلى رسالة هذا الرجل لتنقذها مرة أخرى[1] إن ذلك واقعٌ لا محالة وآتٍ لا ريب فيه ويومها يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم.

---

(١) نحو مجتمع إسلامي ص ١٣/١٢

أهم المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم**

البيجوري

إبراهيم البيجوري.

٢- " **تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد**". الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية.

أحمد أمين.

٣- "**فجر الإسلام**". مكتبة النهضة. الطبعة الحادية عشرة.

أرنولد ، السير توماس.

٤- "**تاريخ الدعوة إلى الإسلام**". مكتبة النهضة المصرية.

الأشقر ،

د/عمر سليمان الأشقر.

٥- "**العقيدة في الله**". دار النفائس.

الألوسي ،

محمد شكري الألوسي.

٦- "**روح المعاني**". دار الطباعة المنيرية.

بدوي ،

د/ عبدالرحمن بدوي.

٧- "**موسوعة الفلسفة**". المؤسسة العربية للطباعة والنشر.

د/ بركات دويدار.
٨- "**الوحدانية**". مكتبة النهضة المصرية.
البستاني ،
المعلم بطرس البستاني.
٩ - "**محيط المحيط**". مكتبة لبنان ١٩٧٣م.
١٠- "**مختصر تفسير البغوي**" للدكتور عبدالله الزيد. مكتبة المعارف للنشر.
أبوالبقاء ،
أيوب بن موسى الكفوي.
١١- "**الكليات**". نشر وزارة الثقافة. دمشق ١٩٧٥م.
البهي ،
د/ محمد البهي.
١٢- **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**". مكتبة وهبة .
١٣- "**الفكر الإسلامي والمجتمع المعاصر**".
البيروني.
١٤- "**تحقيق ماللهند من مقولة**". عالم الكتب ١٩٨٣م.
بيصار ،
الدكتور محمد بيصار.
١٥- "**العقيدة والأخلاق**". مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٣م
البيضاوي.
١٦- "**تفسير البيضاوي**".

التفتازاني ،
سعد الدين بن عمر التفتازاني.
١٧- "**مقاصد الطالبين في علم أصول الدين**". دار الطباعة العامرة.
التهانوي ،
محمد على الفاروقي التهانوي.
١٨- "**كشاف اصطلاحات الفنون**" تحقيق الدكتور لطفي عبدالبديع .
ابن تيمية.
١٩- "**الإيمان ضمن مجموع الفتاوى**". الناشر دار الفكر
جارودي ،
روجيه جارودي.
٢٠- "**ما يعد به الإسلام**" ترجمة قصي أتاسى. مراجعة محمد البجاوي.
محمد كمال جعفر.
٢١- "**في الدين المقارن**". دار الكتب الجامعية.
د/ جواد على.
٢٢- "**المفصل في تاريخ العرب**". دار العلم للملايين.
جورج هدلي.
٢٣- "**الدين .. مادة ورمزاً**". ضمن آفاق المعرفة. ترجمة فؤاد جميل. مؤسسة فرانكلين للطباعة.
ابن حزم.
٢٤- "**الفصل في الملل والأهواء والنحل**". مكتبة السلام العالمية. القاهرة.



خان ،
وحيد الدين خان.
٢٥- "**الإسلام يتحدى**". دار المختار الإسلامي.
الخطيب ،
الأستاذ/ عبدالكريم الخطيب.
٢٦- " **الله ..ذاتاً وموضوعاً**". دار الفكر العربي.
٢٧- **دائرة المعارف الإسلامية** لمجموعة من المستشرقين. ترجمة أحمد الشناوي وآخرون. الناشر دار الفكر العربي.
أبوداود.
٢٨- "**سنن أبي داود**" شرح الحافظ بن قيم الجوزية. الناشر المكتبة السلفية.
دراز ،
الدكتور/ محمد عبدالله دراز
٢٩- "**الدين**". دار القلم. الكويت.
الرازي ،
الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي
٣٠- "**التفسير الكبير**".
رشيد رضا.
٣١- "**تفسير المنار**". دار المعرفة للطباعة والنشر.

الزمخشري ،
أبوالقاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشري.
٣٢- "**الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل**". طبعة الحلبي ١٩٧١م.
الزنداني ،
الشيخ / عبدالمجيد الزنداني.
٣٣- "**توحيد الخالق**".
السامرائي ،
د/ نعمان السامرائي.
٣٤- "**الصحوة الإسلامية في عيون مختلفة**". الناشر دار جدة ١٩٩٣م.
السحيباني ،
الشيخ/ محمد بن ناصر السحيباني.
٣٥- "**منهج الشهرستاني في كتابه الملل والنحل**". دار الوطن. الرياض.
أبوالسعود
٣٦- "**تفسير أبوالسعود**" .
سيد قطب.
٣٧- "**في ظلال القرآن**". دار الشروق.
٣٨- "**في النفس والمجتمع**" دار الشروق .
٣٩- "**خصائص التصور الإسلامي ومقوماته**". دار الشروق.

الشاذلي ،

الدكتور/ عبدالله يوسف الشاذلي.

٤٠- "**الحكمة العربية في أصالتها الفطرية**". الدار القومية.

٤١- "**المنهاج القرآني**". الدار القومية.

٤٢- "**الألوهية في الفكر الإسلامي**". الدار القومية

شاكر ،

الأستاذ/ محمود شاكر.

٤٣- "**أباطيل وأسمار**" مطبعة المدني . الطبعة الثانية.

ابن الشريف ،

الدكتور/ محمود بن الشريف.

٤٤- "**الأديان في القرآن**" دار المعارف الطبعة الثالثة ١٩٦٣م.

الشهرستاني.

"**الملل والنحل**". دار الفكر. بيروت.

"**نهاية الأقدام**" .

صبحي ،

د/ نبيل صبحي.

٤٥- "**الحرمان والتخلف في ديار المسلمين**". كتاب الأمة ١٤٠٤ هـ

الصنعاني.

٤٦- "سبل السلام" نشر جامعة الإمام ١٩٨٤م.

الطبري ،

أبوجعفر محمد بن جرير الطبري.

٤٧- "**تفسير الطبري**" تحقيق أحمد ومحمود شاكر . دار المعارف.

د/ عامر النجار.

٤٨-"**في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية**".دار المعارف.**الطبعة الثالثة ١٩٩٤م**

الإمام الأكبر الدكتور/ عبدالحليم محمود.

٤٩- "**الإسلام والإيمان**" . دار الكتب الحديثة.

عبدالرازق ،

الإمام الأكبر الشيخ/ مصطفى عبدالرازق .

٥٠- "**الدين والوحي والإسلام**" دار القادري لبنان.

الدكتور/ عوض الله حجازي.

٥١- "**مقارنة الأديان بين اليهودية والإسلام**". دار الطباعة المحمدية .

عبيد ،

الأستاذ/ حمدي عبيد.

٥٢- "**معجم المصطلحات**". ملحق بالموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب. نشر الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الرياض١٩٩٨م

ابن أبي العز .

٥٣- "**شرح الطحاوية**" تحقيق د/ عبدالله التركي ، شعيب الأرناؤوط. **مؤسسة** الرسالة.

العسقلاني ،

الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني .

٥٤- "**فتح الباري شرح صحيح البخاري**" دار الريان للتراث .

العسكري ،

أبو هلال العسكري.

٥٥- "**الفروق في اللغة** ". دار الآفاق . بيروت١٩٧٣م

ابن عطية .

٥٦- "**المحرر الوجيز في تفسير كتاب العزيز**" تحقيق أحمد صادق الملاح. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٧٤م.

العقاد ،

الأستاذ/ عباس محمود العقّاد.

٥٧- "**الله .. كتاب في نشأة العقيدة الدينية**" دار العلم للملايين.

د/ علم الدين كمال.

٥٨- "**تطور الكائنات الحية** ". مجلة عالم الفكر. المجلد الثالث. العدد الرابع ١٩٧٣م . الكويت .

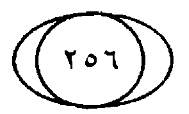
عمارة ،

الدكتور/ محمد عمارة.

٥٩- "**الإسلام والسياسة**" نشر مجمع البحوث الإسلامية.

د/ عمارة نجيب.

٦٠- "**الإنسان في ظل الأديان**". مكتبة المعارف. الرياض.



الغزالي ،

الإمام أبي حامد الغزالي.

٦١- "**الاقتصاد في الاعتقاد**" . مكتبة الجندي.

القاسمي ،

محمدجمال الدين القاسمي.

٦٢- "**محاسن التأويل**" . دار الفكر.

القرطبي ،

الإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن بكر فرح الأنصاري.

٦٣- "**تفسير الجامع لأحكام القرآن**" .

قطب ،

محمد قطب.

٦٤- "**مذاهب فكرية معاصرة**" . دار الشروق .

٦٥- "**معركة التقاليد**" . دار الشروق .

٦٦- "**التطور والثبات**" . دار الشروق .

٦٧- "**دراسات في النفس الإنسانية**" . دار الشروق .

٦٨- "**واقعنا المعاصر**" . دار الشروق .

ابن فارس .

٦٩- "**معجم مقاييس اللغة**" . تحقيق عبدالسلام هارون .

د/ فاروق الدسوقي .

٧٠- "**الإسلام والعلم التجريبي**" . المكتب الإسلامي. بيروت.



د/ فرج الله عبدالباري .

٧١-"**اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام**".دار الوفاء. الطبعة الثانية.

الفيروز أبادي.

٧٢- "**القاموس المحيط**" المطبعة الميمنية بمصر .

ابن كثير ،

الحافظ بن كثير الدمشقي .

٧٣- "**تفسير القرآن العظيم**" .

المراغي ،

الشيخ مصطفى المراغي.

٧٤- "**تفسير المراغي**". طبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٩م.

المصري ،

الأستاذ عبدالرؤوف المصري.

٧٥- "**معجم القرآن**" مطبعة حجازي ١٩٤٨م.

د/ مصطفى حلمي .

٧٦-"**الإسلام والأديان**" . الطبعة الأولى ١٩٩٠م . دار الدعوة. الأسكندرية .

مظهر ،

سليمان مظهر .

٧٧- "**قصة الديانات**" .

ملص ،
محمد بسام الملص .
٧٨- "**النهضة الأوربية**" . دراسة نقدية نشر جامعة الإمام ١٩٩٢م
ابن منظور ،
جمال الدين بن منظور .
٧٩- "**لسان العرب**" . دار المعارف .
المنوفي ،
الأستاذ/ محمود أبوالفيض المنوفي .
٨٠- "**الدين والفلسفة والعلم**". دار الكتب الحديثة
النشار ،
الدكتور/ على سامي النشار .
٨١- "**نشأة الدين**" دار نشر الثقافة بالإسكندرية ١٩٤٩م.
النووي .
٨٢- "**مسلم بشرح النووي**" . المطبعة العربية ومكتبتها . القاهرة
هراس ،
د/ محمد خليل هراس .
٨٣- "**دعوة التوحيد**" . نشر دار الصحابة. طنطا .

ابن هشام ،

أبي محمد عبدالملك بن هشام .

٨٤- **"السيرة النبوية"** تحقيق الدكتور/ محمد فهمي السرجاني . المكتبة التوفيقية .

٨٥- **"المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي"** .

الدكتور يحيى هاشم حسن فرغل .

٨٦- **"الإسلام والاتجاهات العلمية"** . دار المعارف.

٨٧- **"مداخل للعقيدة الإسلامية"** . مطبعة التقدم . طنطا ١٩٨٥م .

٨٨- **"في مواجهة الإلحاد المعاصر"** . الناشر مجمع البحوث الإسلامية .

الأستاذ/ يوسف كرم .

٨٩- **"تاريخ الفلسفة الحديثة"** . دار المعارف .

* - هناك بعض المصادر والدوريات اكتفينا بإيرادها في الهامش .

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة



تعريف بالمؤلف

أ.د/ فرج الله عبد الباري أبو عطا الله .

- ولد في دقادوس ـ ميت غمر ـ دقهلية في ١٣/٥/١٩٥٩ م.
- تلقى تعليمه في الأزهر الشريف منذ السنة الأولى الابتدائية حتى حصل على الليسانس في أصول الدين والدعوة الإسلامية عام ١٩٨١م بمرتبة الشرف .
- عُين معيدا في قسم مقارنة الأديان سنة ١٩٨١ م .
- حصل على درجة الماجستير في العقيدة والفلسفة بتقدير ممتاز عام ١٩٨٧ م في موضوع اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام .
- صدر قرار تعيينه مدرسا مساعدا في قسم العقيدة والفلسفة عام ١٩٨٧ م.
- حصل على العالمية الدكتوراة بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٩٠م في موضوع موقف القرآن الكريم من الفكر المادي .
- صدر قرار تعيينه مدرسا بقسم العقيدة والفلسفة ٣/١٠/١٩٩٠ م .
- رُقي الى درجة استاذ مساعد في قسم العقيدة والفلسفة في ٤/١/١٩٩٥ م .
- أُعير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بكلية أصول الدين بالرياض قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة اعتبارا من ٢٦/١٠/١٩٩٣ م إلى ٢١/٨/١٩٩٩
- اختير في فترة إعارته ضمن أحد عشرة أساتذة حققوا سبق الإنجاز والجدية في الإرشاد الطلابي والبحث العلمي في كلية أصول الدين بالرياض .
- رُقي إلى درجة أستاذ في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة في ٨/١١/٢٠٠٠ م .
- سافر إلى كل من تركيا وسوريا لزيارة دور الكتب فيهما وتصوير بعض المخطوطات، وزيارة كلية الإلهيات بمرمرة باستانبول .
- يقوم بخطبة الجمعة في مساجد وزارة الأوقاف والجمعيات الأهلية منذ سنة ١٩٧٩م .

المؤلفات العلمية :-

١- اليوم الآخر بين اليهودية والمسيحية والإسلام طبعة ثانية دار الوفاء .

٢- موقف القرآن الكريم من الفكر المادى - رسالة دكتوراه (مخطوطة) .

٣- النزعة الإلحادية فى النظريات العلمية - بحث نُشر فى حولية أصول الدين عام ١٩٩١ م .

٤- الاختراق اليهودى للمجتمعات الإسلامية نشأته وتطوره طبعة ثانية عام ٢٠٠٠م .

٥- التصور اليهودى للمسيح وعلاقته بالتقارب المسيحى اليهودى المعاصر طبعة ثانية عام ٢٠٠١ م.

٦- نقض دعوى عالمية النصرانية" مترجم إلى الإنجليزية عام ١٩٩٧ م حولية أصول الدين بطنطا .

٧- عالم الملائكة - دراسة عقدية كتاب،عام ١٩٩٨ م.

٨-العلمانية النسبة الدلالة - الدوافع،بحث عام ١٩٩٩ م حولية اصول الدين .

٩- العقيدة الدينية ونشأتها بين التوحيد والتطور-كتاب عام ٢٠٠٠ م.

١٠-العقائد الدينية عند الأمم الوثنية كتاب،عام ٢٠٠٠م.

١١- الديمقراطية رؤية إسلامية بحث - مقدم إلى الندوة العالمية للشباب الإسلامى فى عمان - الأردن عام ١٩٩٨ م.

١٢- بحث عن المادية منشور فى موسوعة المذاهب المعاصرة دار إشبيلية الرياض عام ١٩٩٧ م.

١٣- الاستنساخ . بحث مقدم إلى اللجنة العلمية الدائمة لترقية الأساتذة بجامعة الأزهر عام ٢٠٠٠ م.